جزء
٤

أسرار النفس البشرية

بقلم

سيد تقي سيد حسين الموسوي

حفظه الله

أسرار النفس البشريّة
الجزء الرابع

للمؤلف
سيّد تقي سيّد حسين الموسوي
حفظه الله

www.taqimusawi.com

0096899419461

صندوق البريد ٩٣٠

الرمز البريدي ١١٤

سلطنة عُمان

المصادر

- كتاب معاذلة النفس وهو صحيفة من صحف نبيّ الله إدريس عليه السلام.
- كتاب سرّ البشرية أو السعادة والبقاء للشيخ صادق العنقاء قدّس سرّه.
- كتاب السَّحر للدكتور يوشي ميكي مايدا الياباني.
- كتاب تحف العقول.
- كتاب بحار الأنوار.
- كتاب السموات السبع للمؤلف سيّد تقي الموسوي.
- كتاب هكذا تكلّم عيسى عليه السلام للمؤلف سيّد تقي الموسوي.
- كتاب قدوة الفقهاء والعارفين للمؤلف سيّد تقي الموسوي.
- كتاب وحدة الإرادة في الوجود للمؤلف سيّد تقي الموسوي.

المحتويات

المصادر ٦
المحتويات ٧
العرفان بالجميل ١٠
المقدّمة ١١
بذور الشرك الخفيّ ٣١
يا نفس غيّري نهجك في الحياة ٣٤
إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ٣٧
عشق الله كنز عظيم ٤٠
موتوا قبل أن تموتوا ٤٣
فإذا فرغت فانصب وإلى ربّك فارغب ٥١
يا نفس تخلّصي من القذارات ٥٤
له الملك وله المجد ٥٩
أعمال البرّ والإحسان ٦٢
قال ارجعون ٦٥

تتمنّين لو أنك رجعت إلى الدنيا..... ٧٩
كل شيء ملكه وله ومنه وإليه..... ٨٤
عبّاد بني إسرائيل..... ٨٧
بذور الظلم الخفيّ..... ٩٦
هلك من لم يكن له حكيم يرشده..... ٩٩
يا نفس أعاذلك فلا تسمعين..... ١٠٢
يا نفس اجمعي شتات أفكارك..... ١٠٥
يا نفس كم تسوّفين..... ١٠٨
يا نفس اشغلي الحواس بالمباهج الروحية..... ١١١
الصوم عن اللذات..... ١١٤
الروح والحواس والجسد..... ١١٨
حبّ الدنيا رأس كل خطيئة..... ١٢٣
يا نفس تجافي عن دار الغرور..... ١٢٦
يا نفس هذا فخّ الدنيا فاحذريه..... ١٣١
هكذا تغدر الدنيا بأهلها..... ١٣٦
رققوا قلوبكم بذكر الموت..... ١٣٩

العرفان بالجميل

أنا مدين جدًّا في كتبي الأخيرة، وعلى الخصوص هذا الكتاب (أسرار النفس البشريّة)، وأيضًا كتبي السابقة (هكذا تكلّم الإمام جعفر الصادق عليه السلام) و (ورفعناه مكانًا عليًّا) و(بوذا ونور الملكوت) و(هكذا تكلّم الله على لسان داود) و (هكذا ناجى داود ربه) و (كتاب محاورتي مع الشيخ علي المياحي) و (كتاب المباني الأساسيّة للطريقة الأويسيّة) الذي أُسّس بناءً على أسئلته، ذلك للسيد محمد الشوباصي من سوريا، حيث زوّدني بالمراجع القيّمة وساعدني كثيرًا في إتمام كتبي ومراجعتها وتصميمها ونشرها إلكترونيًّا عن طريق مواقع التواصل الاجتماعي والإنترنت. فالشكر له موصول لما آثرني به من خدمات قيّمة لا أنساها، وأسأل الله العليّ القدير أن يوفّقه في حياته في هذه الدنيا وفي الآخرة إنّه سميع مجيب الدعاء.

وأيضًا أشكر زهير من دبي في الإمارات العربيّة المتحدة وجهاد من البحرين لوضع موقع إلكتروني لكتبي، ولا أعرف حقيقة كيف أشكرهما على مأثرة الإيثار التي يتحلّان بها رغم مشاغلهما الكثيرة. فقد ساعداني كثيرًا في نشر كتبي وسهّلا للقارئ العربي الوصول إلى هذه الكتب. فالشكر موصول لهما إلى الأبد وأتمنّى لهما من كلّ قلبي التوفيق في الدنيا والآخرة.

المقدّمة

يقول الله عزّ من قائل في الحديث القدسيّ: << يا بن آدم ! أكثرْ مِنَ الزّاد ؛ فإنّ الطّريقَ بعيدٌ بعيدٌ، وجَدّدِ السفينةَ ؛ فإنَّ البحرَ عَميقٌ عميقٌ، وخفّفِ الحملَ ؛ فإنّ الصِّراطَ دقيقٌ دقيقٌ، وأخلِصِ العملَ ؛ فإنَّ النَّاقِدَ بصيرٌ بصيرٌ، وأخّر نومَكَ إلى القبرِ، وفخرَكَ إلى الميزانِ >>.

ويقول الله تعالى في زبور داود: << لو تفكّرتم خشونة الثرى، ووحشة القبر وظلمته، لقلّ كلامكم، وكثر ذكركم، واشتغالكم بي >>.

ويقول رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: << إنّ الأرض لتنادي كلّ يوم سبعين مرّة: يا بني آدم كلوا ما شئتم واشتهيتم، فوالله لآكلنّ لحومكم وجلودكم >>.

ويقول رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: << ما من ساعة تمرّ بابن آدم لم يذكر الله فيها إلّا حسر عليها يوم القيامة >>.

أقول لـ نفسي – وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! إنّ الذكرى تنفع المؤمنين، وإنّ كلمات الله لا تنفد، وهي قائمة مستمرّة لا تنقطع أبدًا. وإنّ النفس البشريّة صعبة للغاية، وإنّ معاذلتها ونصحها وموعظتها مشوار طويل طويل، ويجب أن تستمرّ إلى آخر نفسٍ من أنفاسكِ.

وأقول لـ نفسي – وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! إنّ الكلام عن نبذ غير الله، ونبذ التوجّه إليهم، ونبذ التعلّق بهم، والكلام عن الإقبال على التوجّه إلى الله، والتعلّق بالله، بكلّ وجودكِ، هو شيء يسير

يسير، ولكن العمل بذلك شيء عسير عسير، ويتطلّب الذكر المستمرّ المستديم، والجهاد الأكبر، لوقتٍ طويل طويل.

وأقول لـ نفسي – وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! لو لم يكن فيها تعب ونصب، لما قال عزّ من قائل: { فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ }[1] .

فلا تعطي لنفسكِ مجالًا أن تسوّف وتسوّف وتسوّف، بل اعملي وكأنّك على شفا جرف هار وحفرة من نار، وأنقذي نفسكِ وكأنّك على شفا جرف هار وحفرة من نار.

فيا ترى كيف تسوّفين إذا كنتِ على شفا جرف هار وحفرة من نار !

يا نفسُ ! أيعقل أن تسوّفي، وأنتِ ترين نفسكِ على شفا جرف هار وحفرة من نار !

وأقول لـ نفسي – وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ما أنتِ إلّا طفل مجهول ولدتِ في زمن مجهول، لم يكن يعرفكِ أيّ أحدٍ ولا من أنتِ. هو الذي أغناكِ بعد أن كنتِ من المعوزين، هو الذي أعزّكِ بعد ذلّ وهوان، هو الذي أغدق الأمجاد عليكِ بعد أن كنتِ نسيًا منسيًّا.

هو الذي منّ عليكِ، هو الذي أنعم عليكِ، هو الذي أحسن إليكِ، هو الذي أجمل إليكِ، هو الذي أفضل، هو الذي أكمل، هو الذي رزق، هو الذي وفّق، هوالذي أعطى، هو الذي أغنى، هو الذي أقنى، هو الذي آوى، هو الذي كفى، هو الذي هدى، هو الذي عصم، هو الذي ستر، هو الذي غفر، هو الذي أقال، هو الذي مكّن، هو الذي أعزّ، هو الذي أعان، هو الذي عضد، هو الذي أيّد، هو الذي نصر، هو الذي شفى، هو الذي عافى، هو الذي أكرم.

---

[1] سورة الشرح الآية ٧.

وأقول لـ نفسي – وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! وكيف يكون الله معكِ وأنتِ مع الدنيا في هواكِ وتوجّهاتكِ وتعلّقاتكِ ! يا نفسُ ! طلّقي الدنيا ثلاثًا حتى تكسبي الآخرة.

وأقول لـ نفسي – وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! ابتغي السعادة والخلود والبقاء في بناء النفس المطمئنّة الخالدة، التي لا تتزحزح قيد أنملة عن اليقين، ولا تموت كما تموت الجيف في القبور. أعيانهم مفقودة وآثارهم في القلوب موجودة، وباقية خالدة لا تموت ولا تفنى.

وأقول لـ نفسي – وهي تستحقّ ذلك – يا نفسُ ! إنّ الموت هو الانتقال من نشأة إلى نشأة، من نشأة أعطيتِ فيها الأدوات لإرضاء رغباتكِ وعلائقكِ الدنيويّة، (وهي نشأة المشاغل)، إلى نشأة سلبتِ فيها من هذه الأدوات، (وهي نشأة الحالة الصرفة)، حيث فيها حصاد ما اكتسبته في الدنيا، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرّ ! فهي نشأة الأحوال لا الأعمال.

وأقول لـ نفسي – وهي تستحقّ ذلك – يا نفسُ ! إنّ الرّوح الذي هو أنتِ، فهو باقٍ في النشأتين. فإن كان روحكِ في جوار الله، في هذه النشأة، وفي أوج سعادة القرب، فهو في جوار الله، وفي أوج سعادة القرب والزلفى، أضعافًا مضاعفة في النشأة الأخرى، وذلك هو النعيم المقيم !

وإن كان روحكِ في حضيض شقاوة البُعد عن الله، في هذه النشأة، فهو في حضيض شقاوة البُعد عن الله، أضعافًا مضاعفة في النشأة الأخرى، وذلك هو العذاب الأليم !

وأقول لـ نفسي – وهي تستحقّ ذلك – يا نفسُ ! إنّ السالك ظاهريًّا يؤدّي دوره في الحياة الدنيا، ويتمتّع بالملذّات التي أنعمها الله عليه، إلّا أنّه في حقيقة الأمر مع الله ليل نهار، يشكره على نعمائه بكلّ جوارحه وملايين الملايين من خلاياه وأعصابه وغيرها، بل بكلّ وجوده وروحه الذي بين جنبيه. فيكون متحرّرًا من رغباته وعلائقه الدنيويّة، ويكون مع الله وفي جوار الله، وحاله في خدمة الله سرمدًا، وهذا هو الموت قبل الموت !

وأقول لـ نفسي - وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! إن أنتِ فعلتِ كما أقول لكِ، وصلتِ إلى ما ذكره السيّد حسين العالم قدّس سرّه من مرتبة حقّ اليقين الشامخة حيث يقول: << مرتبة حقّ اليقين هي عبارة عن وحدة معنويّة وربط حقيقي بين العاقل والمعقول، بمعنى أنّ الإنسان، بعد سلسلة من الرياضات، يصل إلى مقام تكون فيه نفسه منزّهة عن كلّ الأوساخ والكثافات، وتصبح كالمرآة الصافية التي نفض عنها الغبار كليًّا، بحيث تكون هذه النفس قابلة لتجلّيات النور الإلهي >>.

وإن أنتِ فعلتِ كما أقول لكِ وصلتِ إلى ما ذكره السيّد حسين العالم قدّس سرّه من مقام الفناء في الله، في مقعد صدق عند مليك مقتدر - كما في سورة القمر - حيث يقول: << وبعد سلسلة من هذه الرياضات، يصل السالك تدريجيًّا إلى مقام، إن صرف شهوته فهو لله، وإن غضب فهو لله، وإن جعل أوهامه ترقص فهو لله، يغلق عينيه عما دون الله، وتنفتح بصيرته على الجمال الإلهيّ والجلال والكبرياء والآلاء، التي تملأ الكون من أقصاه إلى أقصاه. وبالتدريج يصل إلى مقام، يجد فيه نفسه تعيّنًا، فالإنسان في الحقيقة لم يكن شيئًا مذكورًا ولا يزال، فالملك سواء كان خارجيًّا (أي في الآفاق وسعة الأكوان) أو داخليًّا (أي في الأنفس وأعماق مشاهدها) كلّه لله وحده - لمن الملك اليوم لله الواحد القهار >>.

يَلُـــومُنِي الْعَـــاذِلُ في حُبِّـــهِ ومـــا دَرَى شَـــعْبَانُ أَنِّي رَجَـــبْ

وإذا انفتحت بصيرتي على الجمال الإلهيّ والجلال والكبرياء والآلاء، فهناك لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على بال بشر، فما أعظم وجدي بها !

[1] شربت الحب كأساً بعد كأس فما نفد الشراب ولا ارتويت
وما عهد الخلائق من شراب على درب الخلود به سقيت
وفي هذا الشراب حياة قلبي حياة الخلد لا متّ ولا فنيت
سقانا ربّنا طهراً طهوراً بقاء الخلد لا سقم ولا موت
سقيت بجوده كأساً دهاقاً بفضل منه للعليا سموت
وما قدري وما وزني لديه بفضل الله بالسقيا نجوت
فما استحققت يوماً من عطاء بفيض الربّ فزت كيف شئت
أفاض الودق في كرم وجود فأرضي أنبتت وأنا ربوت
ففقري في الورى للخير صرف وخير الله من فوقي رجوت
ومزن الله إن درّت أصابت عطاشى في الورى مثلي رويت
قداح أعوزت من كل حشو فسال الفيض فيها فاستويت
مفاقر قد خلت من كلّ شيء تجلّى الله فيّ كما ابتغيت

وأقول لـ نفسي – وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! أكرّر وأكرّر وأكرّر، وأنتِ أيضًا كرّري وكرّري وكرّري، في تصميم وإرادة وعزيمة وإلحاح شديد، فإنّ الذكرى تنفع المؤمنين، حتى تنهدم الحواجز والسدود في نهاية المطاف، فإنّ هدمها ليس بالأمر السهل، ويستحقّ منكِ كلّ هذا العمل الشاقّ. فاعقلي يا نفسُ ! واعملي، ولا تقنعي بالكلام والإنصات.

[1] البيت الأول للعارف الكبير با يزيد البسطامي.

وأقول لـ نفسي – وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! كلّ ما عندكِ من العلم والحكمة، والعشق والمحبّة، والشفقة والرحمة، وكلّ مواهبكِ التي تتباهين بها، إنّما هي ملكه وله ومنه وإليه ! وهي أمجاده لا أمجادكِ. فمتى تتخلّصين من أوهام أمجادكِ ؟ فذلك شرك خفيّ !

وأقول لـ نفسي – وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! إلى متى الشحّ ؟ ألا تتركين المال وتذهبين إلى القبر عارية، لا مال معكِ ولا عقار، ولا جاه ولا مقام ! فلماذا لا تكسبين مودّة الناس ومحبّتهم لكِ ؟ ولماذا تدعين الناس يلعنونكِ ويتمنّون الموت لكِ ؟ أين عقلكِ يا نفسُ ! لا تدعي الشيطان يتلاعب بمخّكِ ويستهين بعقلكِ.

وأقول لـ نفسي – وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! قال عيسى عليه السلام: والحق أقول لكم: << ليس هناك أسوء على وجه الأرض من رجل يحترف الدين، وعليه لباس الدين، كي يخبئ وراء ذلك روحًا آثمة >>.

وأقول لـ نفسي – وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! هذا القدّيس من عبّاد بني إسرائيل قد علم علم اليقين أنّ العظمة ملك الله وله ومنه وإليه، لا يحقّ لنا نحن البشر أن نسرق مجد الله ونستشعر بالعظمة. فإن فعلنا فما أحوجنا لتعنيف النفس ولومها ومعاذلتها ومناصحتها، فإنّها والله صعبة، ولا ترضى إلّا بالباطل وسرقة أمجاد الله سبحانه وتعالى.

وأقول لـ نفسي – وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! ما أكثر ما تحبّ النفس أن تقول "أنا خيرٌ منه"[1] ، أن تظن نفسها خيرًا من الآخرين، وهذا مخالف تمامًا لقوانين التواضع، فإنّ الله خلق كلّ شيء لوظيفة ما، ربّما لا نعرفها، ويسّر لكلّ شيء ما خلق له.

وأقول لـ نفسي – وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! من نحن حتى نحكم على هذا وذاك ونقول "أنا خيرٌ منه"، وهذه من خصال إبليس المتكبّر، ويجب أن ننزّه أنفسنا منها تنزيهًا كاملًا.

وأقول لـ نفسي – وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! هل سمعتِ قصّة موسى عليه السلام حين ناجى ربّه ليلًا، فطلب الله منه أن يخرج غدًا من بيته من الصباح إلى المساء، ويجد إنسانًا أو حيوانًا أوضع منه، ثمّ يأتي به إلى الله.

وفي الصباح ذهب موسى إلى السوق، وبدأ بوظيفته التي كلّفه الله إياها، وذهب يبحث عن إنسان أو حيوان أوضع منه. وكان كلّما رأى إنسانًا وظنّ أنّه أوضع منه انتبه من غفلته وقال لنفسه: ما أدراك ! ربّما هو خير مني، فعلم باطنه عند الله.

حتى قضى طول اليوم هناك، ولم يجد من هو أوضع منه. وفي المساء حين رجوعه إلى ربّه، وجد كلبًا عقورًا مريضًا جائعًا، يلتصق بطنه بعظامه، وصدره بقفص الصدر، من شدّة الجوع والعطش. فقال ها قد وجدتها ! إنّ هذا الكلب أوضع مني. وأراد أن يأخذ الكلب إلى ربّه.

[1] أنا أتكلّم عن بواطن الناس، وإلّا فالمجاملات اللسانيّة والنفاق تطبق الخافقين، حيث يظهر الناس التواضع، وهم في بواطنهم أبعد ما يكونون عن التواضع، وأقرب ما يكونون إلى العُجْب والكبر والغرور، وأكثر ما يكونون ظنًّا بأنّهم خير من الآخرين، وأعلم من الآخرين، وأعظم من الآخرين، وأنّ الآخرين أوضع منهم شأنًا !

فانتبه من غفلته، وقال لنفسه: ما أدراكِ أنّ هذا الكلب أوضع منكِ. ربّما خلقه الله خيرًا منكِ. فرجع إلى ربّه يائسًا خالي الوفاض، وأخبره بما رأى في ذلك اليوم. فخاطبه الله: يا موسى لو جئتني بهذا الكلب لخلعتكَ من مقام النبوّة !!!

وأقول لـ نفسي – وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! انظري ما يقوله ذلك القدّيس من عبّاد بني إسرائيل لرفيقه: يا أخي إنّكَ قد نسيتَ ما قاله أبونا إلياس: من كان يبحث عن الله، ينبغي له أن يذمَّ نفسه فقط. لا جرم أنّه كتبَ ذلك، كي نعمل به، لا أن نفهمه فحسب.

وأقول لـ نفسي – وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! انظري ما قاله نبيّ الله داود عليه السلام: <<سأحرس لساني كي لا يزيغ وينحرف إلى قول الجور والظلم والشرّ والإثم، حتى لا أجد عذرًا لمعصيتي >>.

وأقول لـ نفسي – وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! انظري ماذا قاله ذلك القدّيس من عبّاد بني إسرائيل، وهو على ذلك الجبل، لرفيقه: لقد فهمت الكلام من الساعة الأولى، ولم أنسه قط، بيد أنني لم أطبّقه، ولم ألتزم به بعد، كما يجب وينبغي.

فماذا ينفع أن نتعلّم كثيرًا، ولا نراعي ما تعلّمناه، ولا نطبّقه ولا نلتزم به ؟ إنّ ربّنا لا ينشد منّا جودة وطيبة في الفهم والإدراك، بل جودة وطيبة في القلب. فهو سبحانه وتعالى سوف لا يسألنا في يوم القيامة، ماذا تعلّمنا، بل ماذا فعلنا.

وأقول لـ نفسي – وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! انظري ماذا يقوله ذلك القدّيس من عبّاد بني إسرائيل لرفيقه: ما أقوله هو أنّه يجب على الذين فهموا وصايا الله المكتوبة في الناموس أن يطبّقوها

أولًا، قبل أن يتعلّموا الباقي فيما بعد، وأنّه كلما تعلّم الإنسان شيئًا، يجب عليه أن يلتزم بتلك الحكمة ويطبّقها، لا أن يعرفها ويفهمها فحسب.

وأقول لـ نفسي – وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! انظري ماذا قال ذلك القدّيس لرفيقه، حين علم بأنّه يعيش في تلك الجبال منذ ثلاثين سنة وحيدًا فريدًا، وسأله مع من يتكلّم طوال تلك الفترة الطويلة فقال:

يا أخي أنا أتكلّم مع نفسي. في كلّ يوم أحاسب نفسي، كما لو أني أمام الله في يوم القيامة. وكلّما حاسبت نفسي، أشعر بأنّ شيئًا ما في داخلي يجد لي أعذارًا لأخطائي وعيوبي وذنوبي.

فقال الكبير: يا أخي أنت كامل ! فماذا يا ترى هي أخطاؤك وعيوبك وذنوبك!

أجاب الصغير: يا أخي لا تقل ذلك، لأني أقف بين ذنبين عظيمين: الأول أني لا أعرف نفسي بأني أعظم الخطّائين. والثاني أنني لا أريد أن أندم على ذنبي هذا أكثر من الآخرين.

أجاب الكبير: إن كنت أكمل الرجال، فكيف ينبغي أن تعرف نفسك بأنّك أعظم الخطائين؟

أجاب الصغير: إنّ أوّل كلمة قالها لي معلّمي، في بداية انخراطي في طريقة الفريسيّين هو أنّه ينبغي لي أن أضع نصب عيني، طيبة الآخرين وفداحة ذنبي، وإذا أنا فعلت ذلك، أدركت بأني أعظم الخطّائين.

فقال الكبير: يا أخي إن كان لا يوجد حواليك ناس في هذه الجبال، فعن طيبة من أو عن ذنوب من تتكلّم ؟

أجاب الصغير: ينبغي أن أضع نصب عيني طاعة الشمس والكواكب، لأنّها تخدم خالقها أحسن مني. بيد أني أذمّها، لأنّها لا تعطي النور الكافي، كما أحبّ وأشتهي، أو أنّ حرارتها شديدة، أو أنّ هناك مطرًا كثيرًا أو مطرًا قليلًا على هذه الأرض.

وعند سماع ذلك قال الكبير: يا أخي من أين تعلّمت هذه العقيدة ؟ لأنّ عمري الآن ٩٠ عامًا، وأنا على طريقة الفريسيّين منذ ٧٥ عامًا، ولم أتعلّم ذلك !

أجاب الصغير: يا أخي أنت متواضع، لأنّك وليّ قدّيس من أولياء الله. رغم ذلك أجيبك، بأنّ الخالق لا ينظر إلى أعمارنا، بقدر ما ينظر إلى قلوبنا. ولهذا انتخب الله داود ملكًا على إسرائيل، وجعله نبيًّا، وهو في الخامسة عشرة من عمره، وكان أصغر من ستة من إخوانه.

وأقول لـ نفسي – وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! قبل الإسلام هناك معاصي وذنوب كثيرة ظاهريّة وباطنيّة، ونفترض أنّ المسلم الذي أسلم قد توقّف عن الذنوب الظاهريّة، ولكن الذنوب الباطنيّة تبقى في وجوده.

أو بعبارة أخرى، المفروض أنّ الشرك الظاهري باللسان قد توقّف، لكن يبقى بعده الشرك الخفيّ مستشريًا في المسلم، وفي أعماق وجوده، وهذا ما نسمّيه بـ الشرك الخفيّ.

وإلى أن يصل المسلم إلى رتبة الإيمان يضعف الشرك الخفيّ رويدًا رويدًا، ولكنّه يستزيد خفاء، وينفذ إلى أعماق وجوده، وكلّ ما تقدّم المؤمن في إيمانه، استزاد الشرك خفاء، ونفذ في أعماق الأعماق.

وما أكثر المؤمنين الذين يلبسون إيمانهم بظلم، وهذا هو ظلم النفس، وهو الظلم الخفيّ.

وأقول لـ نفسي – وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! كما تجاهدين الجهاد الأكبر لاجتثاث بذور الشرك الخفيّ من أعماق وجودكِ، كذلك هناك الظلم الخفيّ، تختبئ وتختفي في ظلمات النفس. فجاهدي الجهاد الأكبر لاجتثاث بذور الظلم الخفيّ من وجودكِ.

وأقول لـ نفسي – وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! أخاف عليكِ أن تهلكي في هذه الفرصة القصيرة من عمركِ، فيا ترى كيف تحصل لكِ المعرفة الحقّة الصحيحة التي هي النور، من دون حكيم، الذي ذكره الإمام زين العابدين عليه السلام، ومن دون وليّ مرشد، الذي ذكره الله تعالى.

وأقول لـ نفسي – وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! في هذه المدّة القصيرة من عمركِ، انشدي بكلّ همّة وعزيمة حكيمًا يرشدكِ، ووليًّا يخرجكِ من ظلمات الجهالة، والشرك الخفيّ والظلم الخفيّ.

يا نفسُ ! اسلكي أقصد المسالك إلى النهج المطلوب، كما قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في خطبته الغرّاء.

وأقول لـ نفسي – وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! إنّ في أعماقكِ دهاليز مظلمة، وفي داجيات غياهبها، ومدلهمّات أزقّتها الضيّقة، وحنادس غرفها الكثيرة، حيث مدّ الظلام رواقه الأسود في أغوارها، وعسعس الليل في جميع كهوفها وأوكارها، وتشابهت غياهب جبّها في كلّ مسالكها وأطوارها، هناك الشيطان وجنوده يعبثون ويسعون فيها فسادًا، وشركًا خفيًّا وظلمًا خفيًّا.

وأقول لـ نفسي – وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! لا بدّ لك من نور، يكشف لكِ ما يجري، بكلّ تفاصيله، في أعماق هذه الدهاليز المظلمة، وفي داجيات غياهبها، ومدلهمّات أزقّتها الضيّقة الحالكة، وحنادس غرفها الكثيرة، وفي أغوارها وكهوفها وأوكارها، وغياهب جبّها، ومسالكها الحالكة، حيث يفسق الشيطان ويفجر.

وأقول لـ نفسي – وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! إذا لم ينقشع الظلم الخفيّ الذي يخالط إيمانكِ، فلن ترينّ الأمن ولا النفس الهادية المهديّة المطمئنّة الراضية المرضيّة. يا نفسُ ! جاهدي الجهاد الأكبر، ومارسي أنواع الذكر، لرفع كلّ مظلمة يظلمكِ فيها الشيطان، وما أكثرها من مظالم ! يا نفسُ ! لا تتوقّفي، فإنّ العمر قصير والعمل كثير.

وأقول لـ نفسي – وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! إنّ الشيطان عدوّك ولا يريد بكِ إلا شرًّا، يعبث فيكِ فسادًا وهدمًا وفسقًا وفجورًا، ويريد أن يوردكِ المهالك والأهوال الكبرى.

وأقول لـ نفسي – وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! إذا سلب منكِ الأمن والأمان، فكيف يا ترى تصلين إلى النفس المطمئنّة، التي يجب أن تصلي إليها، قبل أن يطلّ عليكِ شبح الموت ! وقبل أن تجيء سكرة الموت بالحقّ ! ذلك ما كنتِ منه تحيدين !

وأقول لـ نفسي – وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! أخاف عليكِ أن لا تصلي إلى مقام النفس المطمئنّة الخالدة، وترجعي إلى ربّك راضية مرضيّة، متجاوزة البرزخ، متخطّية كلّ مراحل البرزخ، حيث تدخلين في عباد الله المخلصين، وتدخلين جنّة الله.

وأقول لـ نفسي – وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! كم تظلمين نفسكِ ! أعاذلكِ فلا تسمعين، وإذا سمعتِ فلا تنصتين، وإذا أنصتّ كان قلبكِ قاسيًا عن حظّه، لاهيًا عن رشده، سالكًا في غير مضماره، كأن المعنيّ سواكِ، وكأن الرشد في إحراز دنياكِ !

وأقول لـ نفسي – وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! لا أقول ما أقول إلّا ما يقوله العقل والمنطق الصحيح. ما دمتِ في قيد الزمان والمكان فلا ينفعكِ إلّا عقل المعاش، لتحصيل معاشكِ في هذه الدنيا المحدودة الضيّقة. أمّا إذا خرجتِ من قيد الزمان والمكان، انتصبت فيكِ قامة العقل الروحاني، فتجدين بهذا العقل العجَب العجَاب !

تجدين ما وجده الأنبياء والأئمة عليهم السلام والصدّيقون والقدّيسون وأولياء الله الصالحون، من حقارة هذه الدنيا، وعظمة الخالق وبدائعه في خلقه، وكم خبّأ لنا من مباهج ، ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على بال بشر !

وأقول لـ نفسي – وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! ما أطول غفلتكِ وسباتكِ ! فانتبهي من غفلتكِ، واستيقظي من سباتكِ، فالموت لمّا يطبّق عليكِ خناقه، ولمّا يغرز في لحمكِ براثنه، ولمّا يجمّد دمائكِ، ولمّا يحبس أنفاسكِ، ولمّا يوقّف زفيركِ وشهيقكِ، ولمّا ينهش لحمكِ نهشًا، ولما يبل جسدكِ، ولما ينتن رائحتكِ، ولما يغيّر ملامحكِ، ولما تصبحي في محلّة الأموات رهينة، وفي ضيق المضجع وحيدة، ولما تهتك الهوامّ جلدتكِ، ولما تبل النواهك جدّتكِ، ولما تعف العواصف آثاركِ، ولما يمح الحدثان معالمكِ، ولما يصر جسدكِ شحبًا بعد بضّته، والعظام نخرة بعد قوّتها، وروحكِ لا زالت في نشأة قابلة للهداية، والسلوك في طريق الرشاد، والإدبار عن طريق الغيّ، ولا زلتِ في وعي وعافية، تسمعين ندائي، وتنصتين إلى كلامي ومعاذلتي وموعظتي ونصائحي وإرشاداتي، ولكِ القوّة على تغيير نهجكِ في الحياة، رأسًا على عقب.

وأقول لـ نفسي – وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! انتبهي ! الملك لله وحده، وقد أودع ملكوته في كلّ شيء من بدائعه، فاتركي كلّ شيء، وابحثي عن ملكوته في كلّ شيء، حتى تكوني من الموقنين، كما حدث لأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام.

وأقول لـ نفسي – وهي تستحقّ ذلك – يا نفسُ ! اتركي كلّ شيء والتصقي بالله، واجمعي شتات أفكاركِ، واسلكي أقصد المسالك إلى النهج المطلوب، لا تفتلكِ فاتلات الغرور، وأوهام العُجْب والكبر والشرور، وادخلي مباشرة في السير والسلوك، بإرادة قويّة وبكلّ تصميم وعزيمة، وابدئي بـ ذكر الله، وابتعدي عن ذكر سواه، بل خافي وأوجلي من ذكر سواه، فإن وقع الغير في قلبكِ، فإنّه شرك خفيّ وظلم خفيّ، تمارسينه في نفسكِ.

وأقول لـ نفسي – وهي تستحقّ ذلك – يا نفسُ ! إنّكِ الآن مستمرّة في ظلم خفيّ، تظلمين نفسكِ بتوجّهاتكِ وتعلّقاتكِ المبعثرة هنا وهناك، وتهدرين طاقاتكِ مجّانًا، كأنكِ لستِ بحاجة إليها.

وأقول لـ نفسي – وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! اجعلي وردكِ وردًا واحدًا. لو أنّكِ سحبتِ الشيء الثقيل من أربع جهات، بقوى مساوية، فهل يا ترى يتحرّك ذلك الشيء ! فكذلك أنتِ الآن لا تتقدّمين قيد أنملة، وقد قال عليّ عليه السلام: << مغبون من تساوى يوماه >>. فيومكِ مثل أمسكِ وغدكِ مثل يومكِ، إلى أن تجيء سكرة الموت بالحقّ ! ذلك ما كنتِ منه تحيدين !

وأقول لـ نفسي – وهي تستحقّ ذلك - أو لستِ مغبونة يا نفسُ ! أمّا إذا كانت طاقاتكِ كلّها متّجهة إلى جهة واحدة، لتحرّك ذلك الشيء الثقيل فورًا.

وأقول لـ نفسي – وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! إنّكِ بحاجة الآن إلى أصغر الطاقات كي تنقذي نفسكِ من ظلم نفسكِ. فاجمعي طاقاتكِ كي تكون كلّها وردًا واحدًا، وكي تتّجه كلّها جهة واحدة، بقوّة عظيمة، كتيّار النهر الجارف، حتى تحقّقي هدفكِ من خلاص نفسكِ من الظلم الخفيّ.

وأوّل الطاقات وأهمّها هو أفكاركِ، فلا تبعثريها هملًا، واجمعيها بالتمارين التي علّمتكِ إياها، حتى تكوني سيّدة أفكاركِ، لا مملوكة أفكاركِ ، كما أنتِ الآن.

وأقول لـ نفسي – وهي تستحقّ ذلك – يا نفسُ ! ما فائدة هذه الأفكار المبعثرة التي إذا فرغتِ من شغل الدنيا رافقتكِ إلى صلاتكِ ومحرابكِ ! قال صلى الله عليه وآله وسلّم: << الصلاة معراج المؤمن >>. فهل يا ترى تسمح لكِ هذه الأفكار المشتّتة بالمعراج في الصلاة ! وقال صلوات الله وسلامه عليه وآله: << لا صلاة إلّا بحضور القلب >>. فهل يا ترى تسمح لكِ هذه الأفكار المتبدّدة المشوّشة بحضور القلب في الصلاة !

وأقول لـ نفسي – وهي تستحقّ ذلك – يا نفسُ ! بل ما أكبر ضرر هذه الأفكار المبعثرة على حياتكِ في هذه الدنيا، وفي بناء النهج الجديد في حياتكِ، لجمع زاد المعاد، والتزوّد لدار الآخرة، ألا فإنّ خير الزاد التقوى ! يابن آدم ! أكثر من الزاد فإنّ الطريق بعيد بعيد، وجدّد السفينة فإنّ البحر عميق عميق، وخفّف الحمل فإنّ الصراط دقيق دقيق، وأخلص العمل فإنّ الناقد بصير بصير، وأخّر نومك إلى القبر، وفخرك إلى الميزان.

وأقول لـ نفسي – وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! إنّ التلذّذ والشهوات مرتبطة بالحواس، فإنّ الله قد خلق الحواس، من أجل الحبور والبهجة والمسرّات، واللهو والبسط والملذّات، والحظّ والرضا وطيب الخاطر. وهي تعيش بهذه المباهج وحدها، كما يعيش البدن بالطعام والشراب، ويعيش الرّوح بالعلم والمعرفة والعشق والمودّة والمحبّة.

وأقول لـ نفسي – وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! فإذا لم تريدي تغذية الحواس بالملذّات الشهوانيّة، فهناك ضرورة قصوى لتغذيتها بالمباهج الروحيّة.

وأقول لـ نفسي – وهي تستحقّ ذلك – يا نفسُ ! إذا لاحظ الخاطئ الأثيم، أنّه بمباشرته الشهوة والملذّات الدنيويّة، قد أثم في حقّ خالقه، لأنّه وقع في شراك حواسه، ينبغي له أن يحزن على آثامه، لأنّها تبعده عن الله وعن الحياة، وتؤدّي به إلى العذاب الأبدي.

وأقول لـ نفسي – وهي تستحقّ ذلك – يا نفسُ ! ولأنّ الإنسان في حياته الدنيويّة، يحتاج إلى هذه الملذّات الشهوانيّة، لذا فإنّ الصيام واتّباع الضوابط ضروري، كي يستطيع الإنسان أن يكبح جماح حواسّه، وكي يعرف بأنّ لله الولاية والسيادة عليه.

وأقول لـ نفسي – وهي تستحقّ ذلك – يا نفسُ ! وإذا رأى الإنسان أنّ الحواس تكره الصيام وتبغضه وتمقته، **فدعه يذكّرها بحالة الجحيم، حيث لا ملذّات البتّة، بل حزن وشجى غير متناه وغير محدود. ودعه يذكّرها بمباهج الجنّة وملذّاتها، فهي عظيمة جدًّا، بحيث أنّ مثقال ذرّة من مباهج**

الجنّة وملذّاتها، أعظم من كلّ المباهج والملذّات الدنيويّة مجتمعة. وبذلك يسهّل عليه تهدئة الحواس وكبح جماحها.

وأقول لـ نفسي - وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! **فالأحسن أن تقنعي بالقليل في هذه الدنيا، لنيل الكثير في الآخرة، من أن تطلقي العنان للقليل، ثمّ تجرّدي وتحرمي من كلّ الملذّات والمباهج في الجحيم، وتبقي في عذاب جهنم خالدة فيها.**

وأقول لـ نفسي - وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! **بحقّ الحيّ الذي لا يموت، كم هو مقيت بغيض كريه، أن تصومي عن الطعام وحده، وفي الوقت نفسه، تملئي روحكِ بالعُجْب والغرور والتكبّر، وتحتقري أولئك الذين لا يصومون، وتستخفّي بهم، وتعتبري نفسكِ أحسن من الآخرين !**

أخبريني يا نفسُ ! هل أنّ الرجل المريض يتباهى ويتفاخر بالحمية، التي فُرضت عليه من قبل الطبيب، ثمّ يسمّى أولئك الذين لم تُفرض عليهم الحمية بالمجانين ؟ بالتأكيد لا ! ولكنّه يحزن لمرضه، الذي كان السبب في الحمية التي لا بدّ منها، والتي فُرضت عليه بالضرورة.

وأقول لـ نفسي - وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! هذه الحواس التي تتغذّى بمباهج الحياة، كما ذكرها عيسى عليه السلام، مطابقة لبرازخ الرّوح التي ذكرتها في كتابي (وحدة الإرادة في الوجود)، وذكرتُ استقلاليّتها عن الرّوح، في أنّ لها وظائف أساسيّة في حياة الإنسان.

وأقول لـ نفسي - وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! حواسكِ متعطّشة لمباهج الحياة، في هذه النشأة وفي النشأة الأخرى، أي في دار الخلود. إنّ هذه الحواس الآن ثائرة وعاصية ومتمرّدة ضد الرّوح، لغيظها وحنقها وسخطها وغضبها من تجرّدها وحرمانها من مباهج جنّات الفردوس، بسبب ارتكاب المعصية من قبل أبينا آدم.

وأقول لـ نفسي - وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! **إنّ هذه المباهج تتضاعف أضعافًا مضاعفة في الجنّة، لخلوّها من الغيظ والحنق والسخط والغضب والحرمان، الذي تحسّه هذه الحواس في هذه الدنيا، بسبب حرمان أبينا آدم من جنات الفردوس، إثر المعصية التي ارتكبها بوسوسة الشيطان.**

أو كما ذكر عيسى بالنصّ في مكان آخر: << ودع التائب يذكّر حواسه بمباهج الجنّة وملذّاتها، فهي عظيمة جدًّا، بحيث أنّ مثقال ذرّة من مباهج الجنّة وملذّاتها، أعظم من كلّ المباهج والملذّات الدنيويّة مجتمعة.

وعلى صعيد آخر، فإنّ عذاب الحرمان يتضاعف أضعافًا مضاعفة في نار الجحيم، لغيظ الحواس وحنقها وسخطها وغضبها من حرمانها المضاعف من جنات النعيم.

أو كما قال عيسى بالنصّ في مكان آخر: << فدع التائب يذكّر الحواس بحالة الجحيم، حيث لا ملذّات البتّة، بل حزن وشجى غير متناه وغير محدود >>.

وأقول لـ نفسي - وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! إنّ القلب السليم هو القلب الذي لا يوجد فيه غير الله، هو القلب الذي يخفق بعشق الله، هو القلب الذي يخفق بالرحمة، هو القلب الذي يخفق بالبرّ والخير والإحسان، هو القلب الذي يخفق بالعدل والطهارة والنزاهة، هو القلب الذي يخفق بالجود والكرم، لا يشوبه شيء آخر غير الله وعشقه ورحمته وبرّه وخيره وإحسانه وعدله وطهارته ونزاهته وجوده وكرمه، بل كلّ أسمائه الحسنى. يا نفسُ ! لا تشركي بالله في قلبكِ أحدًا.

وأقول لـ نفسي - وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! اجعلي قلبكِ طاهرًا نزيهًا رحيمًا عاشقًا، لا يسع سوى الله. يا نفسُ ! لا تفسحي المجال لغير الله في قلبكِ أبدًا، فإنّ الله غيور. يقول جلّ من

قائل[1]: { إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا }.

وأقول لـ نفسي - وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! هذا هو الفخّ المنصوب لكِ، فأعرضي عن الدنيا، وتحرّزي منها، وطلّقيها ثلاثًا، وانظري إليها بعين الخائف الوجل منها، وافطني للفخّ، وانحرفي عنه، واحذريه، وكوني منها كالطائر الذي عرف الفخّ المنصوب، وفطن له، فانحرف عنه وحذره.

أيعقل يا نفسُ ! أن يكون الطائر أفطن منكِ !!!

يا نفسُ ! إنّ الدنيا كالعسل وأنتِ كالذبابة، إن وقعتِ في العسل هلكتِ. فخذي حذركِ، وابتعدي عنها ابتعاد الفريسة عن السبع.

وأقول لـ نفسي - وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! **واشقوتاه لأولئك الذين يشيّعون موتاهم إلى القبور، كي يقدّموا لحومهم طعامًا للديدان، ثمّ لا يعتبرون ! كم هم بعيدون عن واقع الحياة، حيث يظنّون أنّهم في هذه الدنيا خالدون، لأنّهم يبنون قصورًا، ويلهثون وراء المال مغرورين متكبّرين !**

وأقول لـ نفسي - وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! تقولين: إنّ الآخرة حقّ وأنتِ تمهّدين الدنيا ! وتقولين: إنّ الموت حقّ وأنتِ تفرّين منه ! وتقولين: إنّ الله يسمع ويرى، ولا تخافين إحصائه عليكِ ! فكيف يصدّقكِ من سمعكِ ؟ فإنّ من كذب من غير علم أعذر ممّن كذب على علم، وإن كان لا عذر في شيء من الكذب.

[1] سورة النساء الآية ٤٨.

وأقول لـ نفسي - وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! بحقّ أقول لكم: إنّ الدابّة إذا لم تركب ولم تمتهن وتستعمل، لتصعب ويتغيّر خلقها، وكذلك القلوب إذا لم ترقّق بذكر الموت ويتبعها دؤوب العبادة تقسو وتغلظ.

وأقول لـ نفسي - وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! ماذا يغني عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره، وجوفه وحش مظلم ! كذلك لا يغني عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم، وأجوافكم منه وحشة معطّلة ! فأسرعوا إلى بيوتكم المظلمة فأنيروا فيها، كذلك فأسرعوا إلى قلوبكم القاسية بالحكمة، قبل أن ترين عليها الخطايا، فتكون أقسى من الحجارة.

المؤلف

سيّد تقي سيّد حسين الموسوي

الموافق لـ ٢٠١٦/١/٤

بذور الشرك الخفيّ

يقول نبيّ الله إدريس عليه وعلى نبيّنا محمّد صلّى الله عليه وآله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين في الفصل الثاني:

> فتيقّني يا نفسُ جميع ما قد شرحته لكِ واعقليه. واعلمي يا نفسُ أنّ مهلكات الأمور ثلاثة أجناس: أوّلها الشرك وسائر أنواعه، والظلم وسائر أنواعه، والتلذّذ وسائر أنواعه. ويجمع هذه الأجناس وسائر أنواعها كلّها أصل واحد، وهو حبّ الدنيا. فتحرّزي، يا نفسُ، من الدنيا وأعرضي عنها، وانظري إليها بعين الخائف الوجل منها. وكوني منها كالطائر الذي عرف الفخّ المنصوب وفطن له فانحرف عنه وحذره.

يا نفسُ ! إنّ الله عزّ وجلّ غيور ولا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، في قوله تعالى[1] : { إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ }.

يا نفسُ ! إنّ التبرّؤ من الشرك ظاهره أن تقول ذلك باللسان، لكن باطن البراءة من الشرك بطون وفنون، ذلك هو الشرك الخفيّ الذي عناه حبيبي محمّد صلى الله عليه وآله وسلّم حيث يقول: <<الشرك أخفى في أمّتي من دبيب النمل على الصفا في الليلة الظلماء >>.

---

[1] سورة النساء الآية ٤٨ والآية ١١٦.

يا نفسُ ! فابحثي في أعماق نفسكِ، واستخرجي البذور الخبيثة المتأصّلة هناك، واستكشفيها بكشّاف نور العلم والمعرفة، فذلك هو جزء من عمل معرفة النفس، واجتثّيها قدر المستطاع، وذلك هو جزء من ذكر الله وعمل الجهاد الأكبر في السير والسلوك. فإنّ هذه البذور الخبيثة هي بذور الشرك الخفيّ.

فكلّ توجّه إلى سوى الله، وتعلّق بغير الله، بذر خبيث زرعه فيكِ الشيطان، الذي انتهز فرصة أيام جهلكِ وغفلتكِ، فبذرها فيكِ، ورسّخها في عقلكِ الباطن، وهو عينه الشرك الخفيّ.

يا نفسُ ! إنّ الذكرى تنفع المؤمنين، وإنّ كلمات الله لا تنفد، وهي قائمة مستمرّة لا تنقطع أبدًا. وإنّ النفس البشريّة صعبة للغاية، وإنّ معاذلتها ونصحها وموعظتها مشوار طويل طويل، ويجب أن تستمرّ إلى آخر نفس من أنفاسكِ.

يا نفسُ ! إنّ الكلام عن نبذ غير الله، ونبذ التوجّه إليهم، ونبذ التعلّق بهم، والكلام عن الإقبال على التوجّه إلى الله، والتعلّق بالله، بكلّ وجودكِ، هو شيء يسير يسير، ولكن العمل بذلك شيء عسير عسير، ويتطلّب الذكر المستمرّ المستديم، والجهاد الأكبر، لوقت طويل طويل.

يا نفس غيّري نهجك في الحياة

يا نفسُ ! اخدمي الله واعبديه، لا بالمفهوم التقليديّ، بحيث تكرّرينها بلسانكِ فقط، فإنّ ذلك لا يجدي نفعًا، بل بالمفهوم الحقيقيّ، بصدق اللسان والقول والفكر والعمل، والتوجّه إلى مناصحة جادّة، ولوم وتعنيف للنفس الصعبة، بمعنى العمل الشاقّ، والتعب والنصب، على هذه النفس الصعبة، أو بمعنى الجهاد الأكبر. يقول الله تعالى[1] : { فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ }.

يا نفسُ ! لو لم يكن فيها تعب ونصب، لما قال عزّ من قائل: فَانْصَبْ. فلا تعطي لنفسكِ مجالًا أن تسوّف وتسوّف وتسوّف، بل اعملي وكأنّكِ على شفا جرف هار وحفرة من نار، وأنقذي نفسكِ وكأنّك على شفا جرف هار وحفرة من نار، فيا ترى كيف تسوّفين إذا كنتِ على شفا جرف هار وحفرة من نار !

يا نفسُ ! أيعقل أن تسوّفي، وأنتِ ترين نفسكِ على شفا جرف هار وحفرة من نار !

يا نفسُ ! استعملي وقت الفراغ - وما أكثره عندكِ - في التوجّه الجادّ إلى النفس لمعرفتها ومناصحتها ولومها وتعنيفها. وفي وقت الفراغ نظّفي بيتكِ الداخلي، وحديقتكِ الخلفيّة، من البذور الخبيثة، التي زرعها فيكِ الشيطان في وقت غفلتكِ، ألا هي بذور الشرك الخفيّ.

يا نفسُ ! إنّ سقوطكِ من الملأ الأعلى، ومن حضور الأنس بالله، وحضور النور والسرور، قد ورّطكِ في مستنقع صعب، في حشدٍ هائل من جنود الشيطان وأتباعه.

---

[1] سورة الشرح الآية ٧.

واستنقاذكِ من هذا المستنقع يا نفسُ ! ليس بهذه السهولة. فصعوبتكِ ورعونتكِ تبقى لاصقة بكِ، لصوق القطب السالب بالقطب الموجب من المغناطيس، ولو أقررتِ غير ذلك باللسان.

ويتطلّب استنقاذكِ عملًا جادًّا شاقًّا من الذكر المتواصل والجهاد الأكبر، فيما نسمّيه السير والسلوك، بحيث يتغيّر نهجكِ في الحياة، رأسًا على عقب، وتتحوّلين من حبّ الدنيا وشهواتها ورغباتها وزينتها وزبرجها، وحبّ الجاه والمقام والمال والمنال، وكلّ الاعتبارات الاجتماعيّة[1] ، من ملكية العقار والثروة وتضخّم الرصيد البنكي، والشحّ عن أعمال البرّ والإحسان، ومن رعونة دار الغرور، إلى التجافي عنه، وعن حبّ الدنيا، وحبّ الجاه، وحبّ المال، والإنابة إلى دار الخلود.

[1] الاعتبارات الاجتماعيّة هي المشكلة الكبرى عندنا، حيث علّمونا أن نقتني في الحياة الأشياء التي ذكرته، وفي الحقيقة إننا نتسابق في جمع الدنيا مع الآخرين، ممن هم حوالينا، فالثقافة المهيمنة علينا هي ثقافة المال. وليتها كانت ثقافة القيم والأخلاق التي علّمنا إياها الأنبياء والأوصياء والأئمة الطاهرون وأولياء الله الصالحون ! فمشكلتنا اعتباريّة محضة، ولو كان المجتمع حولنا تهيمن عليه ثقافة القيم والأخلاق، لتغيّر وضعنا ونهجنا في الحياة في كثير من الحالات. إننا ضحايا المجتمع واعتباراتهم الاجتماعيّة !

إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار

يقول الله تعالى[1] : { وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ * إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ }.

يا نفسُ ! إنّ الله تعالى يذكر الأنبياء في كتابه الكريم، لا فقط لنعجب بهم، بل أيضًا لنتّخذهم قدوة لنا في حياتنا، ولنقتدي بهم ونحتذي بهم حذو النعل بالنعل.

يا نفسُ ! باللهِ عليكِ هل هو صعب أن يخلصنا الله بخالصة ذكرى الدار ! هل هو صعب أن نتذكّر الموت وحياة الآخرة وحياة الخلود التي تنتظرنا ! يا ليتنا فهمنا أنّ الاهتمام الخالص بالموت وحياة الآخرة لا تجوّعنا ولا تعطّشنا ولا تفقرنا ولا تقذف بنا إلى حياة البؤس، بل بالعكس، تأتي إلينا الدنيا راغبة فينا، وتسعى إلينا سعيًا على الرأس لا سعيًا على القدم !

بل بالعكس إنّ الاهتمام الخالص بالموت والحياة الآخرة تورثنا السعادة والنفس المطمئنّة ، لأننا نفوّض كلّ أمورنا إلى الله، ونتوكّل على الله في أمورنا الدنيويّة، ونعلم علم اليقين أنّه لا يصيبنا إلا ما كتب الله لنا. وأنه علينا أن نقنع، فمهما كدحنا في طلب الرزق، فلا نرزق إلّا ما كتب الله لنا.

يا نفسُ ! تعقّلي وأخلصي نفسك لحياة الخلود، فإنّ الدنيا نفسها تهتمّ بنفسها وبأمورها، ولا تحتاج إلى اهتماماتكِ الهائلة المتعبة بالدنيا. أكانت الدنيا متوقّفة من قبل أن تولدي، لملايين الملايين من السنين ! أتكون الدنيا متوقّفة بعد موتكِ ، لملايين الملايين من السنين !

---

[1] سورة ص ٤٥ – ٤٧.

أين عقلكِ يا نفسُ ! من يا ترى كان يدير الدنيا قبلك لملايين الملايين من السنين الماضية ! ومن يا ترى سوف يدير الدنيا لملايين الملايين من السنين القادمة !

من يا ترى ورّطك يا نفسُ ! في محوريّة الذات ! أتحسبين أنّكِ المحور في الوجود ؟ أتحسبين أنّ الدنيا هي إمبراطوريّتكِ ! أتحسبين أنّ كلّ شيء يدور حولكِ وحول عظمتكِ !

ما أنتِ إلّا طفل مجهول ولدت في زمن مجهول، لم يكن يعرفكِ أيّ أحد ولا من أنت. هو الذي أغناكِ بعد أن كنتِ من المعوزين، هو الذي أعزّكِ بعد ذلّ وهوان، هو الذي أغدق الأمجاد عليكِ بعد أن كنتِ نسيًا منسيًّا.

هو الذي منّ عليكِ، هو الذي أنعم عليكِ، هو الذي أحسن إليكِ، هو الذي أجمل إليك، هو الذي أفضل، هو الذي أكمل، هو الذي رزق، هو الذي وفّق، هوالذي أعطى، هو الذي أغنى، هو الذي أقنى، هو الذي آوى، هو الذي كفى، هو الذي هدى، هو الذي عصم، هو الذي ستر، هو الذي غفر، هو الذي أقال، هو الذي مكّن، هو الذي أعزّ، هو الذي أعان، هو الذي عضد، هو الذي أيّد، هو الذي نصر، هو الذي شفى، هو الذي عافى، هو الذي أكرم.

أهكذا تديرين ظهركِ لخالقكِ وبارئكِ، والذي رفع ذكركِ وأغناكِ وأعزّكِ بعد أن لم تكوني شيئًا مذكورًا ! أتنكرين كلّ هذه العناية والرعاية التي يغدقها عليكِ ليل نهار ! فوالله لو توقّفت هذه العناية الربّانية للحظة، لسقطتِ من أعلى الشاهقات، وهويتِ إلى أسفل السفليّات !

عشق الله كنز عظيم

يا نفسُ ! موتي قبل أن تموتي، كي لا تفاجئك لحظة الموت وأنتِ لم تحضّري نفسكِ لها، ثمّ تقولين: [1] { ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ }. عندكِ الفرصة الثمينة في هذه الدنيا كي تعملي الصالحات.

والصالحات هي الباقيات من العلم والمعرفة، وأعمال البرّ والإحسان، بما فيها بناء مؤسّسات لتربية الأجيال، وتربية الولد الصالح البرّ الوفيّ الأمين، وتربية رجال الله كأمثال هوشع، الذي ذكرنا قصّته في الجزء الثالث من كتاب (أسرار النفس البشريّة).

تخلّصي من ظلمات الجهل، ومن ظلمات الشرك الخفيّ، فوالله كلّ ما سوى الله شركٌ محض. قال الإمام الحسين عليه السلام: << أَنْتَ الَّذِي أَزَلْتَ الأَغْيارَ عَنْ قُلُوبِ أَحِبَّائِكَ حَتَّى لَمْ يُحِبُّوا سِواكَ وَلَمْ يَلْجَأُوا إِلى غَيْرِكَ >>.

إذا أحببتِ سواه من مال ومنال ومتاع وغيره فأنتِ في شرك خفيّ. إذا التجأتِ إلى غير الله، وتركتِ الدعاء والتوسّل والابتهال إلى الله، ولجأتِ إلى فلان وفلان للعون والمساعدة، فأنتِ في شركٍ خفيّ. فما أعظم ضعفكِ يا نفسُ !

يا نفسُ ! وكيف يكون الله معكِ وأنتِ مع الدنيا في هواكش وتوجّهاتكِ وتعلّقاتكِ ! يا نفسُ ! طلّقي الدنيا ثلاثًا حتى تكسبي الآخرة.

---

[1] سورة المؤمنون ٩٩ - ١٠٠.

يا نفسُ ! ابتغي السعادة والخلود والبقاء في بناء النفس المطمئنّة الخالدة، التي لا تتزحزح قيد أنملة عن اليقين، ولا تموتِ كما تموت الجيف في القبور. أعيانهم مفقودة وآثارهم في القلوب موجودة، وباقية خالدة لا تموت ولا تفنى.

فإنّهما – السعادة والبقاء - حاجتان ملحّتان في فطرتكِ، ولكنّكِ لم تتعلّمي كيف تستثمريهما، أو أنكِ لم تعيري التفاتكِ إلى نصائحي ومعاذلتي.

لقد بذّرتِ هاتين الحاجتين الملحّتين أيّما تبذير، وهدرتِ هذه الطاقة الملحّة أيّما هدر، وسلكتِ الطريق الخطأ في إرضاء هاتين الحاجتين الملحّتين في فطرتكِ.

هكذا عرّفهما معلّمي الربّاني الشيخ صادق العنقاء قدّس الله سرّه في كتابه (سرّ البشريّة) أو (السعادة والبقاء) ونشر في عام ١٩٧٣ وأيضًا في كتاب (السَّحر) للدكتور يوشي ميكي مايدا الياباني:

> هدف السعي والمجاهدات البشريّة هو السعادة والبقاء. لهذا فالسعادة والبقاء قانونان أصيلان فريدان، اللذان يضمّان كلّ السعي البشري من الطفولة إلى الموت.

موتوا قبل أن تموتوا

[1] ويستطرد شيخي ومعلمي الربّاني العارف الكبير الشيخ صادق العنقاء قدّس سرّه في صفحات ٦٢ إلى ٦٣ من كتاب (السَّحر) قائلًا:-

يقولون بأنّ السبب الأصلي لخوف الطفل من الظلام، هو وجود المجهولات في الظلام. لهذا السبب يجب علينا أن ننوّر الظلمات. لا مناص من الموت، يعني تلك الحقيقة الفريدة من نوعها. لهذا يجب معرفة الموت، حتى نكون بهذه المعرفة قادرين على الحصول على السعادة والطمأنينة. لهذا السبب نرى كثيرين من رجال التاريخ الأبطال لم يحملوا ذرّة من الخوف من الموت. لماذا ؟

لو دققت في هذا الأمر لعلمت بأنّهم عرفوا الموت، وعرفوا بأنّ الموت ليس هو نهاية الطريق. ولكن المهمّ هو أنّهم عرفوا الموت[2] ، لا أنّهم قرأوا عنه أو سمعوا به، وهذا هو المهمّ في الأمر.

---

[1] من كتابي قدوة الفقهاء والعارفين.

[2] المعرفة الوجدانيّة بالموت هي المعرفة الحقيقيّة بالموت، كما أمرنا رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بقوله: <<موتوا قبل أن تموتوا >>. أمّا المعرفة النقليّة أو الذهنيّة عن الموت التي هي عند الناس، فهي ليست حقيقية. فأمر رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وآله لنا بالموت، هو الموت الوجداني، لا الموت الذهني الفكري، الذي هو أن تتصوّر الموت بالفكر والذهن. أمّا الموت الوجداني العرفاني فهو أن تعطّل نشاطك الدماغي، وأن تجمع أفكارك، وتوقّف تفكيرك، وأن تعطّل ذهنيّاتك، وتوقفها عن العمل. فالأفكار والذهنيّات هي السدّ أمام الجمع الوجداني، وأمام التركيز في النقطة النورانيّة في القلب.

ومَـــنْ هَـــابَ أسْـــبابَ المَنـــايا يَنَلْنَـــهُ

ولـــو رامَ أســـبابَ السَـــمّاءِ بِسُـــلَّمِ

ولأنّ البشر بطبيعته في بحث للحصول على البقاء، فهو بمجرّد كشفه لهذه الحقيقة، يتحرّر من كلّ هذه المخاوف. لهذا السبب تعالوا معنا نعلن القانون في كلمتين موجزتين:-

هدف السعي والمجاهدات البشريّة هو السعادة والبقاء. <<السعادة والبقاء هو اسم ثان للكتاب الذي كتبه الشيخ صادق العنقاء قدّس سرّه، ونشر في عام ١٩٧٣ تحت عنوان "سرّ البشريّة" >>.

لهذا فالسعادة والبقاء قانونان أصيلان فريدان، اللذان يضمّان كلّ السعي البشري من الطفولة إلى الموت.

فالموت هو الموت عن الدنيا، يعني الموت عن أفكارك وذهنيّاتك المبعثرة، التي هي عبارة عن مشاغل الدنيا واستمراريّتها عندك، والتي هي غذاء دنياك، حتى على المحراب في صلاة الليل وغيرها من الصلوات. علمًا بأنّ الأفكار هي استمراريّة مشاغلك الدنيويّة، والتي هي تغذّي الدنيا. فالمشغلة الدنيويّة مستمرّة حتى بعد المشغلة الدنيويّة، وذلك في أفكارك التي تحملها معك حتى إلى محرابك، مع الأسف الشديد.

فإذا فرغت من مشغلة ما، فالحذار الحذار أن تحملها معك في أفكارك في أوقات الفراغ. فأوقات الفراغ تستحقّ منك الجهاد الأكبر والرغبة في الله. يقول الله تعالى في سورة الإنشراح الآيات ٧ - ٨: ({ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ }.

ولقد سمعتُ مولاي صادق العنقاء قدّس سرّه مرة يقول: << الحمار الذي ركبته في النهار ضعه في إسطبله بعد الاستفادة منه، ولا تحمله معك إلى محراب صلاتك >>. يعني بذلك أن لا تحمل أفكار الحمار وهمومه معك بعد الاستفادة منه، أي توقّف عن التفكير فيه حالما فرغت منه، ولا تحمل أفكار حمارك بعد ذلك. أليس الأجدى أن تستغرق في الله، وأن تنجذب فيه، بدل التفكير في الحمار ؟؟؟

والآن وقد عرفت ماذا تبحث عنه في الحقيقة، تعال نكتشف ما هو الشيء الذي يوصلنا إلى هذه الأهداف.

ولمعرفة الموت لغرض التغلّب على الموت نهائيًّا، وحصول البقاء والسعادة والطمأنينة (التي تكلّم عنها شيخي صادق العنقاء قدّس سرّه)، أمرنا رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بالموت قبل الموت حيث يقول صلوات الله وسلامه عليه وآله: << موتوا قبل أن تموتوا >>. فما هو الموت ؟ يقول الشاعر:-

سَـــــبيلُ المَـــــوتِ غايَـــــةُ كُلِّ حيٍّ
فدَاعِيَـــــــهُ لِأَهْـــــــلِ الأرضِ داعي

ويقول الأخفش:-

لا أَرَى المَـــوْتَ يَسِـــبْقُ المَـــوْتَ شَيْءٌ
نَغَّـــصَ المَـــوْتُ ذَا الغِـــنَى والفَقِـــيرا

الموت هو الانتقال من نشأة إلى نشأة، من نشأة أعطيت فيها الأدوات لإرضاء رغباتك وعلائقك الدنيويّة، (وهي نشأة المشاغل)، إلى نشأة سلبت فيها من هذه الأدوات، (وهي نشأة الحالة الصرفة)، حيث فيها حصاد ما اكتسبته في الدنيا، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرّ ! فهي نشأة الأحوال لا الأعمال.

أمّا الرّوح الذي هو أنت، فهو باقٍ في النشأتين. فإن كان روحك في جوار الله، في هذه النشأة، وفي أوج سعادة القرب، فهو في جوار الله، وفي أوج سعادة القرب والزلفى، أضعافًا مضاعفة في النشأة الأخرى، وذلك هو النعيم المقيم !

وإن كان روحك في حضيض شقاوة البُعد عن الله، في هذه النشأة، فهو في حضيض شقاوة البُعد عن الله، أضعافًا مضاعفة في النشأة الأخرى، وذلك هو العذاب الأليم !

ولماذا يتضاعف أضعافًا مضاعفة ؟ لأنّ الأدوات التي أعطيتها في النشأة الدنيا، وهو عالم المشاغل، تشغلك عن العذاب بإرضاء رغباتك وعلائقك الدنيويّة. فأنت مشغول فيها بالتمتّعات الجنسيّة، وتمتّعات الطعام والشراب، وتمتّعات لغو اللسان والكلام الهراء، وتمتّعات الاستماع إلى اللغو والكلام الهراء، وتمتّعات امتلاك متاع الدنيا وزبرجها وزينتها، وتمتّعات الجاه والمقام والعلوّ في الأرض وغيرها.

فإذا فهمت هذا، سهل عليك فهم المعنى والمقصود من كلام أفضل الرسل وأعلاهم محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم في حديثه الشريف: << موتوا قبل أن تموتوا >>. وهذا الحديث له دور كبير في التربية العرفانيّة، حيث يتعرّض السالكون لهذا الموت قبل الموت. كيف ؟؟؟

عن طريق الرياضات والجهاد الأكبر، حيث يتعرّض السالكون في التربية العرفانيّة إلى رياضات وتمرينات للتحرّر من رغباتهم الدنيويّة والعلائق النفسيّة بمتاع الدنيا وزبرجها وزينتها، أي إلغاء دور الأدوات في نشأة الدنيا، التي هي نشأة المشاغل.

فيكون السالك ظاهريًّا يؤدّي دوره في الحياة الدنيا، ويتمتّع بالملذّات التي أنعمها الله عليه، إلّا أنّه في حقيقة الأمر مع الله ليل نهار، يشكره على نعمائه بكلّ جوارحه وملايين الملايين من خلاياه وأعصابه وغيرها، بل بكلّ وجوده وروحه

الذي بين جنبيه. فيكون متحرّرًا من رغباته وعلائقه الدنيويّة، ويكون مع الله وفي جوار الله، وحاله في خدمة الله سرمدًا، وهذا هو الموت قبل الموت !

فسَبِّخْ عليْك الهَمَّ واعْلَمْ بأَنّه
إِذَا قَدَّر الرّحمنُ شَيئاً فكائنُ

أو لا يستحقّ التجربة ولو مرّة واحدة في مقابل الحصول على الفلاح والنعيم المقيم ؟ فإن أنت لم تفعل ذلك، تكون في النشأة الأخرى في العذاب الأليم. لماذا ؟

لأنّك هناك مليء بالرغبات الدنيويّة، والعلائق بمتاع الدنيا وزبرجها وزينتها، ولكنّك مجرّد من الأدوات لإرضاء رغباتك الدنيويّة وعلائقك السفليّة. أليس هذا عذابًا ؟ أن تريد شيئًا وهو أمامك ولا تستطيع الحصول عليه ؟ ليس يومًا أو يومين، بل أنت مخلّد في هذه الحالة الصعبة أبد الآبدين. لماذا ؟

لأنّك أنت نفسك وبيديك اقترفت جريمة الظلم في حقّ نفسك !!! يقول المتنبي:-

رَيّانُ لَوْ قَذَفَ الذي أسْقَيْتَهُ
لجَرَى منَ المُهَجاتِ بَحْرٌ مُزْبِدُ

ولات حين مناص ! وأنّى للندامة أن تنفع ! وهل يغني من الحدثان ليت !!!

فإن أنت فعلت كما أقول لك، وصلت إلى ما ذكره السيّد حسين العالم قدّس سرّه من مرتبة حقّ اليقين الشامخة حيث يقول: << مرتبة حقّ اليقين هي عبارة

عن وحدة معنويّة وربط حقيقي بين العاقل والمعقول، بمعنى أنّ الإنسان، بعد سلسلة من الرياضات، يصل إلى مقام تكون فيه نفسه منزّهة عن كلّ الأوساخ والكثافات، وتصبح كالمرآة الصافية التي نفض عنها الغبار كليًّا، بحيث تكون هذه النفس قابلة لتجلّيات النور الإلهيّ.

وإن أنت فعلت كما أقول لك تصل إلى ما ذكره السيّد حسين العالم قدّس سرّه من مقام الفناء في الله، فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ - كما في سورة القمر[1]- حيث يقول: << وبعد سلسلة من هذه الرياضات، يصل تدريجيًّا إلى مقام، إن صرف شهوته فهو لله، وإن غضب فهو لله، وإن جعل أوهامه ترقص فهو لله، يغلق عينيه عما دون الله، وتنفتح بصيرته على الجمال الإلهي والجلال والكبرياء والآلاء، التي تملأ الكون من أقصاه إلى أقصاه. وبالتدريج يصل إلى مقام ، يجد فيه نفسه تعيّنًا ، فالإنسان في الحقيقة لم يكن شيئًا مذكورًا ولا يزال، فالملك سواء كان خارجيًّا (أي في الآفاق وسعة الأكوان) أو داخليًّا (أي في الأنفس وأعماق مشاهدها) كلّه لله وحده - لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ[2]>>.

يَلُـــــومُنِي الْعَـــــاذِلُ فِي حُبِّـــــهِ

ومـــــا دَرَى شَـــــعْبَانُ أَنِّي رَجَـــــبْ

---

[1] سورة القمر الآية ٥٥.

[2] سورة غافر الآية ١٦.

وإذا انفتحت بصيرتي على الجمال الإلهيّ والجلال والكبرياء والآلاء، فهناك لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على بال بشر، فما أعظم وجدي بها !

وَحَلَّـــتْ سَـــوَادَ الْقَلْـــبِ لاَ أَنَا بَاغِيـــا
سِـــوْاهَا وَلاَ عَـــنْ حُبِّهَـــا مُتَرَاخِيـــا

فإذا فرغت فانصب وإلى ربّك فارغب [1]

يا نفسُ ! تخلّصي من القذارات، ولا تحمليها معكِ إلى القبر.

يا نفسُ ! إنّ التخلّص من قذارات النفس ليس أمرًا سهلًا، فغيّري نهج حياتكِ، وادخلي السير والسلوك، كي تبني قصور الآخرة. فإنّ قصور الدنيا زائلة بائدة، وقصور الآخرة باقية خالدة دائمة. وذلك يستحقّ منك التعب والنصب في الجهاد الأكبر والذكر المستمرّ المستديم.

يا نفسُ ! فإذا فرغتِ فانصَبي وإلى ربّكِ فارغَبي.

يا نفسُ ! أكرّر وأكرّر وأكرّر، وأنتِ أيضًا كرّري وكرّري وكرّري، في تصميم وإرادة وعزيمة وإلحاح شديد، فإنّ الذكرى تنفع المؤمنين، حتى تنهدم الحواجز والسدود في نهاية المطاف، فإنّ هدمها ليس بالأمر السهل، ويستحقّ منكِ كلّ هذا العمل الشاقّ. فاعقلي يا نفسُ ! واعملي، ولا تقنعي بالكلام والانصات.

يا نفسُ ! خلال العمل الطويل الشاق في جهادك الأكبر، هدّئي من حركاتكِ اللاإراديّة، وراقبي مراقبة قريبة جميع نظامكِ العصبي والفسيولوجي وخبايا عقلك الباطن.

يا نفسُ ! كوني نورًا، واحملي نورًا إلى النور القدّوس السلام المؤمن المهيمن. هو معكِ أينما كنتِ، هو مونسكِ من داخلكِ، هو رازقكِ هو بارئكِ، وهو الذي يفتح عليكِ أبواب الرزق وأبواب العلم والمعرفة، من حيث تحتسبين ومن حيث لا تحتسبين.

---

(1) سورة الشرح الآيات ٧-٨.

هو الذي يفتح عليكِ أبواب فهم الأنبياء، وأبواب علوم الغيب، ومرافقة الرّوح والملائكة، وعالم جبروت العقل، وعوالم الملكوت واللاهوت، والفناء في الله والبقاء مع الله.

يقول الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: << أَنْتَ المُؤنِسُ لَهُمْ حَيْثُ أَوْحَشَتْهُمُ الْعَوالِمُ >> أنت المونس لي حيث أوحشتني العوالم. ويقول الله تعالى[1] : { وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا } (سورة النبأ ١٩).

[1] سورة النبأ الآية ١٩.

يا نفس تخلّصي من القذارات

٢٧ فَـــإِذَا أَرَدْتَ السَّـــيْرَ فِي بَحْـــرِ الْأُلى [١] وَصَـــلُوا مَوَاقِـــعَ دُرِّهَـــا طُوبَاهَـــا [٢]

٢٨ فَـــانْزِعْ لِبَـــاسَ الْعُجْـــبِ وَانْزِلْ مِـــنْ عَـــلٍ هَشِّـــمْ أُنُـــوفَ الْكِـــبْرِ فِي طَغْوَاهَـــا

٢٩ وَارْجِـــعْ إِلَى ظُـــلْمِ النُّفُـــوسِ مُحَاسِـــباً حَطِّـــمْ سَلاسِـــلَ كِبْرِهَـــا وَعَنَاهـــا [٣]

٣٠ مَـــرَضُ النُّفُـــوسِ وَيَالَهَـــا مِـــنْ كُرْبَـــةٍ فَابْحَـــثْ شِـــفَاءَ وَجِيعِهَـــا وَدَوَاهـــا

٣١ وَانْهَـــضْ مِـــنَ النَّـــوْمِ الطَّوِيـــلِ مُفَارِقـــاً مَـــا قَـــدْ كَسَـــبْتَ بِغَفْـــلَةٍ بِـــدُجَاها

٣٢ أَغْـــلالَ حُـــبِّ الْفَانِيَـــاتِ وَقَيْـــدَهَا كَيْـــفَ الْفِـــكَاكُ وَأَنْـــتَ فِي وُسْـــطَاها

٣٣ يَحْـــدُوكَ [٤] طُـــولُ الأُمْنِيَـــاتِ مُبَعْـــثِراً سُـــكَّانَ نَفْسِـــكَ فِي شَـــتَاتِ لَظَاهـــا [٥]

٣٤ رَانَـــتْ [١] عَـــلَى قَلْـــبِ الْعَبِيـــدِ غُلُـــوُّهُمْ فِي خِدْمَـــةِ الـــدُّنْيَا وَرِقِّ مُنَاهـــا

---

(١) الألى: الذين.

(٢) طوبى: الغبطة والسعادة / الحظّ والعيش الطيب.

(٣) عناء: تعب ومشقة.

(٤) يحدوك: يسوقك.

(٥) لظى: جهنم.

٣٥ مُسْـــتَنْقَعَاتٌ قَـــدْ وَقَعْـــتَ بِوَحْلِهَـــا مُسْـــتَهزِءاً بِالْغَـــيْرِ وَاتَعْسَـــاها

٣٦ تُطْـفِي أَجِـيجَ [٢] جَحِـيمِ نَفْسِـكَ إِنَّمَـا تُطْـفِي بِنَـارٍ لا بِمَـاءِ حِجَاهَـا [٣]

٣٧ أُخْـرُجْ مِـنَ الطُّغْيَـانِ طَالِـبَ رِحْـلَةٍ اِنْزَعْ حَـزَازَاتِ [٤] الْـوَرَى بُعْـدَاها

٣٨ أَحْقَـادَ أَمْسِـكَ فَارْمِهَـا بِسَـخَاوَةٍ أَلْـبُغْضَ وَالْحَسَـدَ الْمُمِيـتَ كِلاهَـا

٣٩ حِـرْصُ الدَّنِيَّـةِ لا تَكُـنْ فِي غُلِّهَـا وَذَرِ [٥] التَّنَـافُسَ فِي رَحَى [٦] دُنْيَاهَـا

٤٠ رَأْسُ الخَطَـايَا حُـبُّ دُنْيَـاكَ الَّـتِي تُمْـلِي الْمَعَـاصِي بُكْـرَةً وَعِشَـاهَا [٧]

٤١ أَرَضِـيتَ بِالطَّـوْرِ الـدَّنِيءِ [٨] عَـلَى الـثَّرَى [٩] طَـوْرِ الْبَهَـائِمِ فِي مَزَابِـلِ بَاهَـا [١٠]

---

(١) ران: غلب.

(٢) أجيج: شدّة الحرّ.

(٣) حجى: العقل.

(٤) حزازات جمع حزازة: وجع في القلب من غيظ ونحوه.

(٥) ذَرْ: دَعْ.

(٦) رَحَى: طاحون.

(٧) إشارة إلى كلام الإمام زين العابدين عليه السلام: << حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة >>.

(٨) دنيء: ذليل، خسيس.

(٩) ثرى: أرض.

(١٠) بَاه: الشهوة الجنسيّة.

٤٢ طَـــوْرِ البَهَـــائِمِ فِي هُمُـــومِ بُطُونِهَـــا وَهُمُـــومِ أَوْكَارٍ وَجُحْـــرِ وِقَاهـــا [١]

٤٣ وَهُمُـــومِ أَوْسَـــاخِ الْبُطُـــونِ وَرَوْثِهَـــا وَتَغَـــوُّطٍ مِـــنْ بَطْنِهَـــا وَمِعَاهـــا [٢]

٤٤ هَمِّ الطَّعَـــامِ بِأَكْلَـــةٍ وَبِرَوْثِهَـــا بِاللَّـــذَّتَيْنِ [٣] وَشَهْـــوَتَيْنِ سُرَاهـــا [٤]

٤٥ هَمِّ اللَّذَائِـــذِ فِي خَيَـــالٍ فَاسِـــقٍ وَالـــرِّجْسِ فِي أَفْـــكَارِهِمْ وَشَـــقَاها

٤٦ قَـــدْ قَـــارَفَ اللَّـــذَّاتِ فِي إِسْـــطَبْلِهِ فَـــاقَ الْبَهَـــائِمَ شَهْـــوَةً وَهَوَاهـــا

٤٧ فَبَهِيمَـــةٌ تَقْضِـــي بِهَـــا حَاجَاتِهَـــا أُطُـــرٌ [٥] بِقَـــدْرِ حَـــوَائِجٍ مَرْعَاهـــا [٦]

٤٨ وَبِفَضْـــلِ عَقْلِـــكَ وَالْخَيَـــالِ وَخِصْـــبِهِ أَبْـــدَعْتَ فِيهَـــا مِـــنْ فُنُـــونِ هَنَاهـــا

٤٩ أَفْرَطْـــتَ فِي سُـــبُلِ الْفُجُـــورِ تَفَنُّنـــاً فُقْـــتَ الشَّـــيَاطِينَ اللِّئَـــامَ غَوَاهـــا

٥٠ أَفْرَطْـــتَ هَمَّـــكَ فِي أُمُـــورٍ شَـــارَكَتْ مَعَـــكَ الْبَهَـــائِمُ هَمَّهَـــا وَحِظَاهـــا [١]

---

[١] الوقاء: ما يصونك ويسترك. وهنا يعني هموم المسكن.

[٢] مِعَى: أمعاء.

[٣] أكل الطعام لذّة وإخراجها أيضًا لذّة، والبهائم والإنسان يقضيان الليل والنهار في هاتين اللذتين.

[٤] يعني مسيرة هذا الطور خلال هاتين الشهوتين.

[٥] أُطُر: جمع إطار.

[٦] مَرْعَى: الكلأ.

٥١ وَنَسِـــيتَ هَمَّـــكَ فِي أُمـــوُرٍ قَـــدْ سَمَـــتْ عَـــــنْ عَـــــالَمِ الأَنْعَـــــامِ فِي سُـــــفْلاها

٥٢ أَرَضِـــيتَ بِالسُّـــفْلِي [٢] وَإِنَّـــكَ طَـــافِحٌ بِكُنُـــوزِ أَطْـــوَارِ النَّمَـــا [٣] وَعُلاهـــا

٥٣ فَاقَتْـــكَ عَقْـــلاً فِي الـــثَّرَى أَنْعَامُهَـــا مِـــنْ دُونِ هَمٍّ شَـــبَّعَتْ أَمْعَاهـــا

٥٤ تَرَكَـــتْ سُـــدَى هَمِّ الطَّعَـــامِ وَرَكَّـــزَتْ طَاقَاتِهَـــا فِي الْكَـــدْحِ فِي مَسْـــعَاها [٤]

٥٥ وَالسَّـــعْيُ مِنْهَـــا مِـــنْ دَوَافِـــعِ حَاجَـــةٍ رَبُّ الْـــوَرَى فِي حِكْمَـــةٍ أَوْلاهـــا

٥٦ وَلَقَـــدْ حَمَلْـــتَ هُمُومَهَـــا فِي غَفْـــلَةٍ وَالـــرِّزْقُ مِنْـــهُ وَالْوِقَـــا وَحِمَاهـــا [٥]

---

[١] حظا جمع حِظَة: الحظّ، المكانة.

[٢] السُفْلِي: نقيض العُلْوِي.

[٣] النماء: النموّ والرشاد.

[٤] يا نفسُ ! تعلّمي من الحيوانات، حيث تركّز طاقاتها في السعي والكدح وراء الرزق، ولا تحمل همّ الرزق وغمّه مثلك. يقول الله تعالى في سورة النجم الآية ٣٩: { وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى }.

ما عليكِ يا نفسُ ! إلّا السعي لا غير، والتدبير من الله عزّ وجلّ. والسعي ينبثق من دوافع حاجة غريزيّة، وهي أيضًا من الله عزّ وجلّ، جعلها الله فيكِ.

فهل بقي لكِ شيء يا نفسُ ؟ فاسعي يا نفسُ ! واكدحي ولا تحملي الهمّ، فإنّه سبحانه وتعالى قد تكفّل بالرزق.

[٥] من كتابي السموات السبع صفحات ٢٦-٢٧.

له الملك وله المجد

يا نفسُ ! كم تحبّين الثناء، غافلة عن أنّكِ تسرقين أمجاد الله. فالثناء والحمد لله وحده، ولمجده تعالى، وحده لا شريك له، له الملك وله المجد وله الثناء وله الحمد. والثناء والحمد حقّه لا حقّكِ. لماذا لا تعرفين أن تعطي كلّ ذي حقّ حقّه !

هو والله الشيطان فيكِ، كامن في أعماقكِ، كلّ همّه سرقة أمجاد الله، وأنتِ عبدة طيّعة في يدي الشيطان، يفعل بكِ الأفاعيل، ويتلاعب بمخّكِ أيّما تلاعب. أما سمعت الله تعالى[1] يقول: { أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ }.

يا نفسُ ! الشيطان هو القوّة الهدّامة في وجودكِ فاحذريه ! هو الذي يخلق الشكوك فيكِ فتحاشيه ! هو الذي يصوّر لكِ زورًا وبهتانًا أنّ كلّ شيءٍ لكِ وملككِ ! ويخلق فيكِ الشحّ والخوف من الفقر، في حين أنّ كلّ شيء لله وحده، وهبكِ شيئًا منها، وهو الوهّاب الجوّاد الكريم.

يا نفسُ ! كم من نفوس أضلّها الشيطان، ودخلن جهنّم التي كنّ يوعدن ! يصلنّها اليوم بما كنّ يكفرن. وإذا أفواههنّ قد ختم عليها، وتكلّم أيديهنّ وتشهد أرجلهنّ بما كنّ يكسبن. وما أسهل على الله أن يطمس على أعينهنّ فلا يبصرن، أو يمسخهنّ على مكانتهنّ فما استطعن مضيًّا ولا يرجعن.

---

[1] سورة يس ٦٠ – ٦٢.

يا نفسُ ! كلّ ما عندكِ من العلم والحكمة، والعشق والمحبّة، والشفقة والرحمة، وكلّ مواهبكِ التي تتباهين بها، إنّما هي ملكه وله ومنه وإليه ! وهي أمجاده لا أمجادكِ. فمتى تتخلّصين من أوهام أمجادكِ ؟ فذلك شركٌ خفيّ !

إذا حصلتِ على الغنى أو الجاه والمقام، بطرتِ وطغيتِ، كأنّ المال مالكِ والذهب ذهبكِ والفضّة فضّتكِ، والجاه جاهكِ والمقام مقامكِ !

يا نفسُ ! افتحي عيونكِ، إنّما هي امتحانات وبلاء يبلوكِ الله بها، فلا تسقطي في هذه الامتحانات فتهلكي. يقول الله تعالى[1] : { كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى * إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى }.

هل فكّرت يا نفسُ ! إلى أين سوف ترجعين ؟ وكيف تحاسبين على كلّ صغيرة وكبيرة ؟

يا نفسُ ! إن إلى ربّكِ الرّجعى. فأين المهرب وأين المفرّ !

[1] سورة العلق الآيات ٦-٨.

أعمال البرّ والإحسان

يا نفسُ ! تفكّرين بجهلكِ أنّ ما عندكِ هو ملككِ، وتغفلين عن أنّ كلّ ممتلكاتكِ له وحده، وإنّما أنتِ وكيلته، أكرمكِ بالوكالة، وخوّلكِ ماله وعقاره وممتلكاته، كي تنفقي منها في أعمال البرّ والإحسان، ومواساة الضعفاء، ومساعدة الفقراء.

يا نفسُ ! إنّ الله يمتحنكِ كي يرى كيف تتصرّفين، وهل تطلقين العنان لشحّ النفس واللؤم والبخل ؟ أم تنتخبين طريق الإنفاق وأعمال البرّ والإحسان ؟

يا نفسُ ! إنّ الله تعالى يقول[1] : { وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }.

فتغلّبي يا نفسُ ! على الشحّ، وأنفقي في سبيل الله، وادخلي في أعمال البرّ والإحسان، طبعًا كما أمر الله به، إذ قال جلّ من قائل[2] : { وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا }.

إلى متى الشحّ يا نفسُ ! ألا تتركين المال وتذهبين إلى القبر عارية، لا مال معكِ ولا عقار، ولا جاه ولا مقام ! فلماذا لا تكسبين مودّة الناس ومحبّتهم لكِ ؟ ولماذا تدعين الناس يلعنونكِ ويتمنّون الموت لكِ ؟ أين عقلكِ يا نفسُ ! لا تدعي الشيطان يتلاعب بمخّكِ ويستهين بعقلكِ.

---

[1] سورة الحشر الآية ٩، وسورة التغابن الآية ١٦.

[2] سورة الإسراء الآية ٢٩.

إنّ الموت قريب ولحظة الاحتضار ليست منكِ ببعيد، حين تقولين للملائكة: ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ. يقول الله تعالى[1] : { حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ }.

اسمعي يا نفسُ ! ما قلته في كتابي (السموات السبع) تحت فصل (قال ارجعون) من صفحة ٦١ إلى ٦٧:-

[1] سورة المؤمنون الآيات ٩٩ – ١٠٠.

قَالَ ارْجِعُونِ [1]

٤٤٠ فَلِغَيْرِكُمْ عِنْدَ الْمَمَاتِ تَحَسُّرٌ ... قَالَ ارْجِعُونِي وَامْنَحُوا رُجْعَاهَا

٤٤١ عَلِّي أُقَوِّمُ مَا تَعَوَّجَ عُودُهُ ... وَلِأَعْمَلَنَّ الصَّالِحَاتِ إِلاهَا

٤٤٢ فَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ سَعْيِي فِي الثَّرَى ... خَلْفَ السَّرَابِ كَمَا جَرَتْ هَيْمَاهَا [2]

٤٤٣ فَلَأَعْقِدَنَّ الْعَزْمَ فِي إِصْلاحِ مَا ... فَاتَتْ مِنَ الْأَيَّامِ مِنْ عَدْوَاها [3]

٤٤٤ عَلِّي أُقَوِّمُ مِنْ إِمَاتِ [4] خِصَالِها ... وَأَحُوزُ فِي الْمَلَكَاتِ مِنْ أَزْكَاهَا

٤٤٥ فَإِذَا رَجَعْتُ إِلَى الْحَيَاةِ فَإِنَّنِي ... أَسْعَى لِفِعْلِ الْخَيْرِ فِي دُنْيَاهَا

٤٤٦ أَسْعَى لِرَفْعِ الرِّجْسِ وَالدَّنَسِ الَّتِي ... رَانَتْ عَلَى قَلْبِي بِسُمْكِ غِطَاهَا

---

[1] إشارة إلى الآيتين الكريمتين (٩٩) و (١٠٠) من سورة المؤمنون: { حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ }.

[2] هيمي: عطاشى.

[3] عدوى: فساد.

[4] إمات: جمع أمت وهو الضعف.

٤٤٧ أَسْـــعَى حَثِيثـــاً [١] فِي رِضَـــاكُمْ إِنَّمَـــا تُمْـــلِي الـــرِّضَى أَسْمَـــاؤُكُمْ حُسْـــنَاها [٢]

٤٤٨ فَلَقَـــدْ تَبَـــيَّنَ مَـــا الْمُهِـــمُّ عَـــلَى الـــثَّرَى وَتَبَيَّنَـــتْ عَوْجَـــاءُ مِـــنْ رَشَـــدَاها [٣]

٤٤٩ وَتَخَلُّـــقِي خُلُـــقَ الْإِلهِ شِـــعَارُنَا إِنْ أُبْعِـــدَتْ عَـــنِّي سَـــوَادُ رَدَاهـــا [٤]

٤٥٠ لا أَعْشُـــوَنَّ [٥] عَـــنِ التَّقَـــرُّبِ فِـــيكِمُ وَالْإِنْغِمَـــاسِ بِـــذِكْرِ رَبِّ عُلاهـــا

٤٥١ لا أَتْرُكَـــنَّ عِبَـــادَةً فِي حُـــبِّكُمْ وَتَهَجُّـــداً فِي اللَّيْـــلِ فِي ذِكْرَاهـــا

٤٥٢ وَإِذَا رَأَيْـــتُ الضُّـــعْفَ مِـــنِّي مُفْرِطـــاً أَبْـــكِي عَـــلَى أَقْـــدَامِكُمْ لِهُـــدَاها [٦]

٤٥٣ قَـــالَ ارْجِعُـــونِي عَلَّـــنِي أَهْـــوَى الْأُلَى وَصَـــلُوا إِلَيْـــكَ وَلُبِّسُـــوا تَقْوَاهـــا

---

[١] الحثيث: السريع.

[٢] معيار رضا الله هو تحقيقك لأسمائه الحسنى في واقعك، فكلما تعلّمت إسماً وجسّدته في واقعك زاد رضا الله عنك، وهو معيار ملموس. فمثلًا أخبرتني إحدى تلميذاتي أن صديقتها كانت تذكر (يا باطن)، فبدأت تعرف ما في باطن الشخص بدون أن تخبره ! وهذه الكرامة تدلّ على رضا الله عنها.

[٣] الرشدي: الرشد.

[٤] النفس تتمنّى إبعاد المنيّة عنها، علّها تعود إلى الدنيا وتعمل صالحًا، ولكن هيهات ! إنّها كلمة هو قائلها : { وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ } (سورة المؤمنون ١٠٠).

[٥] عشا عنه: أعرض.

[٦] وإذا تهجّد السالك وسهر وسهد، وقاوم سلطان النوم، عرف مدى ضعفه، وبكى على شدّة وهنه، بحيث تجري الدموع من مقلتيه مدرارًا مهراقًا.

٤٥٤ عَـلِّي أُصَـاحِبُ مَـنْ تُصَـاحِبُ فِي الْـوَرَى وَأَشُمُّ فِي أَنْفَاسِـهِ رَيَّاهـا

٤٥٥ حَـتَّى أُشَـبَّعَ ذِكْـرَكُمْ وَكَلامَـكُمْ أَهْـوَى الصَّـوَابَ وَأَتْرُكَـنَّ هُرَاهـا

٤٥٦ حَـتَّى أَذُوقَ الشَّهْـدَ مِـنْ أَلْحَـانِكُمْ حَـتَّى أُشَـبَّعَ حُـبَّكُمْ وَهَوَاهـا

٤٥٧ عَـلِّي أُرَاجِـعُ فِي كِتَـابِ تَعَاسَـتِي [١] وَأُغَـيِّرُ السَّـوْدَا إِلَى بَيْضَـاها

٤٥٨ عَـلِّي أَعَـافُ رِفَـاقَ سُـوءٍ فِي الْـوَرَى وَأُحِـبُّ رِفْقَـةَ مَـنْ يُحِـبُّ اللهَ

٤٥٩ عَـلِّي أَخَـالُ [٢] العَاشِـقِينَ لِـذِكْرِكُمْ وَالعَاشِـقِينَ لِقُرْبَـةٍ زُلْفَاهـا

٤٦٠ يَا لَيْتَـنِي عَمَّـرْتُ [٣] نُزْلِي عِنْـدَكُمْ وَهَجَـرْتُ فِـيْكُمْ غَـيْرَكُمْ وَبَلاهـا

---

[١] ويا له من كتاب أسود ! حين يؤمر بقراءة كتابه أن اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ! فتخرج التعاسات النتنة من ثنايا صفحاته ! تقرف منها النفوس وتضيق منها الصدور.

[٢] خال: صادق، صاحب.

[٣] يقول الشاعر:

ويا ليت الذي بيني وبينك عامر وبيني وبين العالمين خراب

فماذا أفادتك أن عمّرت بينك وبين الناس وخربت بينك وبين الله !

٤٦١ فَلَقَـــدْ أَرَدْتُ الْمَـــاءَ لكِـــنْ غَفْلَـــتِي قَـــدْ خَيَّبَـــتْ مَسْـــعَايَ فِي صَحْرَاهـــا

٤٦٢ وَلَقَـــدْ جَرَيْـــتُ طَـــوَالَ عُمْـــرِي نَاشِـــداً بُقَـــعَ السَّـــرَابِ لَـــفِي رُبَى بَيْـــدَاها

٤٦٣ قَـــدْ غَـــرَّنِي وَهَجُ الْحَيَـــاةِ عَـــلَى الـــثَّرَى وَزَبَارِجُ [١] الْأَشْـــيَاءِ فِي دُنْيَاهـــا

٤٦٤ بِعْـــتُ [٢] الْخُلُـــودَ بِـــبَخْسِ يَـــوْمٍ خَـــاطِفٍ [٣] وَحَشَـــرْتُ نَفْسِـــي فِي لِئَـــامِ وَرَاهـــا

٤٦٥ يَا لَيْتَـــنِي كُشِـــفَ الْغِطَـــا [٤] وَأَنَا بِهَـــا أَسْـــعَى عَـــلَى ظَهْـــرِ الـــثَّرَى مَسْـــعَاهَا [٥]

٤٦٦ قَلَّـــدْتُ نَاســـاً أَثْقَلَـــتْهُمْ كُفْرُهَـــا حُـــبُّ الْبَنِـــينَ وَمَالِهَـــا وَلِجَاهـــا

٤٦٧ وَمَحَبَّـــةُ الشَّهَـــوَاتِ فِي أَعْمَـــاقِهِمْ حُـــبُّ الْغَـــرَائِزِ وَالـــدُّمَى وَنِسَـــاها

٤٦٨ قَـــالَ ارْجِعُـــونِي عَلَّـــنِي أَصْـــلَحْتُ مِـــنْ بَطَـــرٍ وَطُغْيَـــانٍ بِعُمْـــقِ خَفَاهـــا

---

[١] الزبارج جمع الزبرج: وهو الزينة.

[٢] باع الخلود ببخس يوم خاطف، وضاع عنه اليوم الخاطف، وضاعت عنه دار الخلود، وخسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين !

[٣] يوم خاطف: اليوم الذي مضى سريعاً.

[٤] وكلّ هدفي من كتابة كتابي (أسرار النفس البشريّة)، بمختلف أجزائها ومجلّداتها، هو كشف الغطاء عن عينينك! وأنت تسعى على ظهر الأرض، قبل أن تحلّ بك المنيّة. { وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ * وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ * وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ * لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ } (سورة ق الآيات ١٩ - ٢٢).

[٥] أي يا ليتني عرفت كلّ ذلك وأنا حيّ أسعى على الأرض.

٤٦٩ بَـــــدَّلْتُ ظُـــــلْمِي بِالْعَـــــدَالَةِ وَالـــــتُّقَى حَاسَـــــبْتُ نَفْسِـــــي مَـــــرَّةً أُخْرَاهـــــا

٤٧٠ فَبَـــــدَأْتُ فِي إِنْصَـــــافِ نَفْسِـــــي أَوَّلاً وَقَبِلْـــــتُ ذُلَّ ضَـــــلاَلِهَا وَخَوَاهـــــا [١]

٤٧١ وَكَشَـــفْتُ عَيْـــبِي بَـــلْ عُيُـــوباً اِخْتَفَـــتْ فِي وَفْـــرَةٍ فِي ظُلْمَـــةٍ وَدُجَاهـــا

٤٧٢ وَبَكَيْـــتُ عُمْـــرِي فِي حِسَـــابٍ خَطِيئَـــتِي وَحِسَـــابِ نَفْسِـــي أَمْتِهَـــا [٢] وَرِيَاهـــا

٤٧٣ وَتَرَكْـــتُ نِشْـــدَانِي عُيُـــوبَ صَحَـــابَتِي وَعُيُـــوبَ نَاسٍ غَـــيْرِهِمْ وَهِجَاهـــا [٣]

٤٧٤ وَلَقَـــدْ قَضَـــيْتُ الْعُمْـــرَ مُنْتَقِـــداً لَهُـــمْ وَنَسِـــيْتُ نَفْسِـــي وَيْلَهَـــا [٤] وَعَنَاهـــا [٥]

٤٧٥ قَـــالَ ارْجِعُـــونِي عَـــلَّ لِي كَفَّـــارَةً مِـــنْ ثِقْـــلِ جُـــرْحِ خَطِيئَـــةٍ وَأَسَـــاها

٤٧٦ مِـــنْ طُـــولِ نِسْـــيَانٍ وَغَفْـــلَةِ عُمْـــرِنَا عَـــنْ ذِكْـــرِ رَبِّ العَـــالَمِينَ إِلاهـــا

٤٧٧ هِجْرَانِنَـــا ذِكْـــرَ الْحَبِيـــبِ وَقُرْبَـــهُ وَجُحُـــودِنَا آيَاتِـــهِ وَجَفَاهـــا

---

[١] خواء: السقوط، التهدم.

[٢] أمت: ضعف.

[٣] الهجاء: الشتم ، تعديد المعايب.

[٤] الويل: الهلاك.

[٥] العناء: المشقة.

٤٧٨ يَا لَيْـــتَ هَمِّـــي فِي الـــثَّرَى نِشْـــدَانُهُ [١] رَبَّ الْخُلُـــــودِ وَنَشْـــــأَةٍ أُخْرَاهـــــا

٤٧٩ أَنْفَاسُـــــنَا مِنْـــــهُ وَمِنْـــــهُ عُمْـــــرُنَا مِنْـــــهُ الْحَيَـــــاةُ وَنَشْـــــأَةً أُولاهـــــا

٤٨٠ رَبٌّ حَبَـــا [٢] نِعَمـــاً بِـــوَفْرَةِ أَنْجُـــمٍ وَسَـــــلامَةً وَسَـــــعَادَةً وَهَنَاهـــــا

٤٨١ يَا لَيْـتَ نَفْسِـي [٣] قَـدْ صَحَـتْ مِـنْ نَوْمِهَـا قَبْـــلَ الـــرَّدَى سَـــكَرَاتِ حَـــقٍّ مَنَاهـــا

٤٨٢ يَا لَيْتَـــنِي أَوْلَيْـــتُ عَقْـــلِي حَقَّـــهُ أَصْـــغَيْتُ لِلـــدَّاعِي طَهُـــورَ نِـــدَاها

٤٨٣ يَا لَيْتَـــنِي أَسْـــلَمْتُ وَجْهِي فِي تُـــقًى طَوْعـــاً وَفَوَّضْـــنَا إِلَيْـــهِ جِبَاهـــا

٤٨٤ قَـــالَ ارْجِعُـــونِي إِنْ رَجَعْـــتُ فَـــإِنَّنِي أَبْـــكِي وَأَخْشَـــعُ شَـــاكِراً نَعْمَاهـــا

٤٨٥ أَبْـــكِي طَـــوَالَ الْعُمْـــرِ فِي نِشْـــدَانِكُمْ مُسْـــتَجْلِباً مِـــنْ عِنْـــدِكُمْ رُحْمَاهـــا [٤]

٤٨٦ مُتَسَـــوِّلاً مِـــنْ عِنْـــدِكُمْ بَرَكَاتِـــكُمْ زَادَ الْمَعَـــادِ وَحُلَّـــتَيْ [١] تَقْوَاهـــا

---

[١] هذا هو سرّ { إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ } (سورة ص ٤٦) : أن تنشد الله وحده وتنشد عمارة الدار الآخرة خالصًا مخلصًا. فاجعل ذلك همّك الوحيد في هذه الدنيا !

[٢] حبا: أعطى.

[٣] يا نفسُ ! اصحي من نومكِ واستيقظي من سباتكِ وانتبهي من غفلتكِ قبل أن تأتي سكرة الموت بالحقّ.

[٤] الرحمى: رقّة القلب.

٤٨٧ فَـــــأَنَا الفَقِـــــيرُ وعَبْـــــدُكُمْ وَرَقِـــــيقُكُمْ لا أَمْلِكَـــــنَّ الشَّـــــيْءَ مِـــــنْ دُنْيَاهـــــا

٤٨٨ وَلَقَـــــدْ حَسِـــــبْتُ بِغَفْـــــلَةٍ وَجَهَـــــالَةٍ أَنّي مَلَكْـــــتُ وَجَاهَـــــةً [٢] وَشَـــــوَاها [٣]

٤٨٩ أَنّي مَلَكْـــــتُ قُصُـــــورَهَا وَحَرِيرَهَـــــا أَنّي مَلَكْـــــتُ بَنِينَهَـــــا وَإِمَاهَـــــا

٤٩٠ أَنّي مَلَكْـــــتُ زُمُـــــرُّداً فِي رَوْعَـــــةٍ أَنّي مَلَكْـــــتُ زَبَرْجَـــــداً وَزُهَاهـــــا

٤٩١ أَنّي مَلَكْـــــتُ التِّـــــبْرَ فِي لَمَعَانِـــــهِ وَجَـــــوَاهِراً بِجَمَالِهَـــــا وَصَـــــفَاها

٤٩٢ وَلَقَـــــدْ صَحَـــــوْتُ بِـــــذُلِّ فَقْـــــرٍ مُوجِـــــعٍ وَأَرَاكَ أَنْـــــتَ بِمُلْكِـــــكُمْ ثَقَلاهـــــا

٤٩٣ بِيَـــــدَيْكَ مُلْـــــكُ الْكَائِنَـــــاتِ جَمِيعِهَـــــا بِيَـــــدَيْكَ نَاصِـــــيَةُ الـــــثَّرَى وَسَمَاهـــــا

٤٩٤ بِيَـــــدَيْكَ رُوْحِي وَانْتِصَـــــابَةُ قَـــــامَتِي بِيَـــــدَيْكَ عَقْـــــلِي وَالحِـــــجَى وَذُكَاهـــــا

٤٩٥ بِيَـــــدَيْكَ قَلْـــــبِي نَابِضـــــاً فِي قُـــــوَّةٍ بِيَـــــدَيْكَ أَنْفَـــــاسِي وَحَـــــرُّ صَـــــدَاها

٤٩٦ بِيَـــــدَيْكَ أَعْصَـــــابِي وَرَوْعَـــــةُ نَظْمِهَـــــا وَعُـــــرُوقُ جِسْـــــمِي حَيَّـــــةً بِـــــدِمَاها

---

(١) الحلة: ثوب جديد.

(٢) الوجاهة: الجاه.

(٣) الشوى: رذال المال.

٤٩٧ بِيَـــــدَيْكَ أَنْـــــتَ صَـــــنَعْتَنَا وَمَتَاعَنَـــــا فَلَـــكَ الْمَتَـــاعُ [١] وَمَـــنْ يَحُـــوزُ دُمَاهـــا [٢]

٤٩٨ وَأَنَا بِفَـــرْطِ الْفَقْـــرِ أَحْسَـــبُ جَـــاهِلاً أَنَّ الْمَتَـــــاعَ [٣] حِيَـــــازَتِي بِـــــدُنَاها [٤]

٤٩٩ يَا لَيْتَـــنِي أَدْرَكْـــتُ صَحْـــوِي قَبْلَهَـــا وَتَرَكْـــتُ ظُلْمَـــةَ غَفْلَـــتِي وَكَرَاهـــا

٥٠٠ قَـــالَ ارْجِعُـــونِي تُبْـــتُ مِـــنْ ذَنْـــبِي وَمَـــا أَجِلُ الـــذُّنُوبَ بِقُبْحِهَـــا وَأَذَاهـــا

٥٠١ وَقَـــدِ اقْتَرَفْـــتُ مِـــنَ الـــذُّنُوبِ صَـــغَائِراً وَكَبَـــائِراً وَأَمِنْـــتُ شَرَّ جَزَاهـــا

٥٠٢ وَظَلَمْـــتُ نَفْسِـــي إِذْ حَجَبْتُـــكَ عَامِـــداً وَحَجَبْـــتُ صَـــوْتَ ضَمَـــائِرِي وَحُـــدَاها [٥]

٥٠٣ وَظَلَمْـــتُ غَـــيْرِي إِذْ قَـــدَرْتُ عَلَـــيْهِمُ وَجَفَـــوْتُ أَرْحَـــامِي أُولِي قُرْبَاهـــا

٥٠٤ وَبَطِـــرْتُ فِي قِصَـــرِ الزَّمَـــانِ تَكَـــبُّراً وَبَطَشْـــتُ فِي ضُـــعَفَائِهِمْ هَزْلاهـــا

٥٠٥ صَـــعَّرْتُ خَـــدَّيَ لِـــلأَنَامِ [١] كَأَنَّـــنِي فِرْعَـــوْنُ عَصْـــرِي جَـــاهِلاً أَعْمَاهـــا

---

[١] ما أشبه متاع الدنيا بالدمية عند الأطفال ! فكما أنّ الطفل يلهو بالدمية، كذلك نحن نلهو بمتاع الدنيا وزينتها وزخرفها.

[٢] الدمى: جمع دمية.

[٣] يقول الله تعالى في الحديث القدسي: << يابن آدم ! المال مالي وأنت عبدي، ومالك إلا ما أكلت فأفنيت، وما لبست فأبليت، وما تصدّقت فأبقيت، وما ذخرت فحظك منه المقت >>.

[٤] دنى: جمع دنيا.

[٥] الحداء: غناء الحادي.

٥٠٦ وَمِـــنَ الْيَسَـــارِ مَلَكْـــتُ قِسْـــطاً وَافِـــراً وَبَخِلْـــتُ فِي مَـــالٍ عَـــلَى ضَـــعْفَاها

٥٠٧ وَأَطَعْـــتُ مَـــنْ يَعْصِـــيكَ بَـــلْ فَاخَرْتُـــهُ آثَامَهَـــا مُسْـــتَهْتِراً بِحَيَاهَـــا

٥٠٨ أَعْرَضْـــتُ عَـــنْ كَلِمِ الْمَـــوَاعِظِ سَـــاخِراً وَزَهِـــدْتُ فِي مَعْـــرُوفِ أَهْـــلِ نُهَاهَـــا

٥٠٩ يَا لَيْتَـــنِي فَارَقْـــتُ سُـــوءَ صَحَـــابَتِي وَصَحِبْـــتُ مَـــنْ يَهْـــوَاكَ حَـــقَّ هَوَاهَـــا

٥١٠ يَا لَيْتَـــنِي لَمْ أَتَّخِـــذْ ذَاكَ الْجَهُـــو لَ خَلِيـــلَ عُمْـــرِي فِي سُرَى دُنْيَاهَـــا

٥١١ وَلَقَـــدْ ضَـــلَلْتُ بِخِـــلَّةٍ يَا لَيْتَـــنِي لَمْ أَتَّخِـــذْهُ بِخِلَّـــتِي وَيْلاهَـــا

٥١٢ قَـــدْ أَوْرَدُونِي هَـــوْلَ مُطَّلَـــعٍ وَقَـــدْ غَشَّـــوْا ضَمِـــيرِي مِـــنْ سَمِيـــكِ غِشَـــاها

٥١٣ فَلَوَاحِـــدٌ مِنّـــا بِـــدِينِ خَلِـــيلِهِ فَابْـــدَأْ بِخِـــلَّةِ عِـــتْرَةٍ وَوِلاهَـــا

٥١٤ يَا لَيْتَـــنِي زَهَّـــدْتُ نَفْسِـــيَ فِي دُنًى وَرَغِبْـــتُ فِي الْأُخْـــرَى وَعِـــزِّ بَقَاهَـــا

٥١٥ قَـــالَ ارْجِعُـــونِي وَارْجِعُـــونِي مَـــرَّةً كَيْ أَعْمَـــلَ الْخَـــيْرَاتِ فِي ضُـــعَفَاها

---

(١) الأنام: الخلق ، الناس، كما في الآية التاسعة من سورة الرحمن الآية ١٠: { وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ }.

٥١٦ كَيْ أَغْسِلَ الْأَحْزَانَ عَنْ أَرْوَاحِهِمْ وَلِأُشْبِعَنَّ مِنَ الْمِعَى [١] غَرْثَاها [٢]

٥١٧ وَلِأَشْفِيَنّ غَلِيلَهُمْ مِنْ غُلَّةٍ وَلِأُرْوِيَنّ أَكْبَادَهُمْ حَرَّاها

٥١٨ كَيْ أَرْحَمَ الْمِسْكِينَ وَابْنَ سَبِيلِهَا فَالرُّحْمُ مِنْ أَسْمَائِكُمْ حُسْنَاها

٥١٩ كَيْ أَغْفِرَ الْعَثَرَاتِ [٣] أَوْ كَبَوَاتِهِمْ فَالْحِلْمُ مِنْكَ وَعَفْوُهَا وَرِضَاها

٥٢٠ وَلِكَيْ أَعِيشَ بِحُسْنِ خُلْقٍ فِيهِمُ وَأَكُونَ سَهْلَ الْجَنْبِ بَيْنَ وَرَاها

٥٢١ مُتَوَاضِعٌ مُتَسَامِحٌ مُتَصَالِحٌ مُتَسَاهِلٌ مُتَحَمِّلٌ لِأَذَاها

٥٢٢ جَلِدٌ صَبُورٌ فِي الشَّدَائِدِ وَالنَّوَى مُتَحَمِّلٌ صَبْراً عَلَى بَلَوَاها

٥٢٣ راضٍ بِقِسْمِكَ قَانِعٌ بِكَفَافِهَا [٤] مُتَوَكِّلٌ مُسْتَسْلِمٌ لِقَضَاها

٥٢٤ حَتَّى تُغَذُّوا رُوحَنَا سُلْطَانَكُمْ وَالضُّعْفَ مِنَّا شِدَّةً وَقُوَاها

---

[١] المعى: الأمعاء.

[٢] الغرثى: الجائعة.

[٣] العثرات: الزلات.

[٤] الكفاف من الرزق: ما كفى عن الناس وأغنى.

٥٢٥ حَـــتَّى أَكُـــونَ أَشَـــدّ نَاسٍ قُـــوَّةً وَفِطَانَـــةً وَحَصَـــافَةً [١] وَذُكَاهـــا

٥٢٦ حَـــتَّى أَحُـــوزَ قُـــوَى الرَّفَـــاهِ [٢] لِأَجْلِـــكُمْ مُتَرَقِّبـــاً أَمْـــراً لَمِـــنْ عَلْيَاهـــا

٥٢٧ وَبِإِذْنِـــكُمْ صَـــوْلِي [٣] وَحُـــكْمُ رَعِيَّـــتِي وَبِإِذْنِـــكُمْ جَـــوْلِي وَعِـــزُّ رَفَاهـــا

٥٢٨ وَبِإِذْنِـــكُمْ طَـــوْلِي [٤] وَقَهْـــرُ مَرَاسَـــتِي [٥] وَبِإِذْنِـــكُمْ حَـــوْلِي عَـــلَى أَقْوَاهـــا

٥٢٩ يَا لَيْتَـــنِي قَبْـــلَ الْمَنُـــونِ عَرَفْتُهَـــا مِـــنْكُمْ إِلَـــيْكُمْ إِذْنُهَـــا وَعَطَاهـــا

٥٣٠ مِـــنْكُمْ إِلَـــيْكُمْ مَالُهَـــا وَبَنُونَهَـــا مِـــنْكُمْ إِلَـــيْكُمْ رَوْضَـــةٌ وَنِسَـــاها

٥٣١ مِـــنْكُمْ إِلَـــيْكُمْ رُوحُنَـــا وَمِثَالُنَـــا مِـــنْكُمْ إِلَـــيْكُمْ جِسْـــمُنَا وَيَـــدَاها

٥٣٢ مِـــنْكُمْ إِلَـــيْكُمْ أَنْفُنَـــا وَعُيُونُنَـــا مِـــنْكُمْ إِلَـــيْكُمْ أُذْنُنَـــا وَشِـــفَاها

٥٣٣ يَا رَوْعَ صُـــنْعِكَ قَـــدْ خَلَقْـــتَ لِسَـــانَنَا لَحْمـــاً وَمِـــنْ شَحْـــمٍ رَبَـــتْ عَيْنَاهـــا

٥٣٤ فَـــالنُّطْقُ مِنَّـــا بِاللُّحُـــومِ وَرُؤْيَـــةٌ مِـــنْ شَحْمِهَـــا عَجَبـــاً لِخَلْـــقِ إِلاهـــا

---

[١] حصف: كان جيد الرأي محكم العقل.

[٢] الرفاه: لين العيش.

[٣] الصول: القهر.

[٤] الطول: القدرة ، الغنى.

[٥] المراسة: الشدة والقوة.

٥٣٥ وَالأُذْنُ مِنَّا وَالسَّمَاعُ بِعَظْمَةٍ يَا رَوْعَهَا عَيَّتْ بِهَا ثَقَلاهَا

٥٣٦ يَا لَيْتَنِي أَدْرَكْتُ ذَلِكَ قَبْلَهَا وَسَجَدْتُ لِلّٰهِ عِشاً وَضُحَاهَا

٥٣٧ وَسَجَدْتُ طَوْعاً مُسْلِماً لَهُ وَجْهَنَا وَأَبَيْتُ غَفْلَتَنَا وَبَرْدَ جَفَاهَا

٥٣٨ مَاذَا تُرَانِي فَاعِلٌ بِإِسَارَتِي [١] فِي ضِيقِ [٢] لَحْدِي [٣] وَانْكِمَاشِ ثَرَاهَا

٥٣٩ وَصَحِبْتُ فِيهِ مِنْ مَتَاعِ دَنِيَّةٍ كَفَنَاً عَلَى جِسْمِي وَرُخْصَ رِدَاهَا

٥٤٠ هَلْ لِي بِرجعة لا لِأَعْمُرَ مَنْزِلاً بَلْ كَيْ لِأَعْمُرَ زَادَ يَوْمِ جَزَاهَا

٥٤١ فَأَتَى النِّدَاءُ مُدَوِّياً وَمُزَمْجِراً كَالرَّعْدِ هَزَّ كِيَانَهُ وَبِنَاهَا

٥٤٢ كَلّا وَ كَلّا هَذِهِ كَلِمَاتُهُ هُوَ قَائِلٌ بِنَدَامَةٍ وَأَسَاهَا [٤]

٥٤٣ فَقَدِ انْقَضَتْ أَيَّامُهُ وَزَمَانُهُ فُرَصُ الْفَلَاحِ تَبَدَّدَتْ وَهُدَاهَا

---

[١] إسارة: أسر.

[٢] في حكمة آل داود: << ويحك كيف لا تذكر لحدك وانفرادك فيه وحدك >>.

[٣] اللحد: القبر.

[٤] إشارة إلى الآية المئة من سورة المؤمنون: { كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ }.

٥٤٤ وَقَـــــدِ انْقَضَـــــتْ أَيَّامُـــــهُ فِي غَفْـــــلَةٍ ضَـــــاعَتْ ثَمِينَـــــةُ عُمْـــــرِهِ أَسْـــــدَاها [١]

٥٤٥ تَمَّـــــتْ عَلَـــــيْهِمْ حُجَّـــــةٌ بِتَمَامِهـــــا وَكَمَالِهَـــــا أَنَّى لَهُـــــمْ رُجْعَاهـــــا

٥٤٦ وَوَرَاءَهُمْ يَـــــوْمٌ طَوِيـــــلٌ عَـــــابِسٌ مِـــــنْ بَرْزَخٍ وَإِلَى نُشُـــــورِ وَرَاهـــــا

٥٤٧ يَا لَيْـــــتَهُمْ سَمِعُـــــوا كَلَامَ مُحَمَّدٍ وَكَلَامُـــــهُ وَحْيٌ إِذَا أَوْحَاهـــــا

٥٤٨ مُوتُـــوا [٢] فَمَـــاتُوا قَبْـــلَ يَـــوْمِ مَمَـــاتِهِمْ وَتَحَيَّنُـــوا فُرَصـــاً لِنُـــورِ سَـــنَاها

٥٤٩ هـــذِي تَعَـــالِيمُ الإِمَـــامِ بِسِـــرِّكُمْ فَتَعَلَّمُـــوا مَثْـــنَى فُرَادَاهـــا [٣]

---

[١] أسداها: أهملها.

[٢] إشارة إلى الحديث النبوي الشريف: << موتوا قبل أن تموتوا >>.

[٣] إشارة إلى الآية السادسة والأربعين من سورة سبأ: { قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى }.

تتمنين لو أنك رجعت إلى الدنيا

يا نفسُ ! تذكّري تلك اللحظة لحظة الاحتضار، وهل هيّأت نفسكِ لها ؟ أتقولين { فزتُ وربّ الكعبة} أم تقولين { ارجعون لعلّي أعمل صالحًا فيما تركت } ؟

يا نفسُ ! في تلك اللحظة، تتمنّين لو أنّكِ رجعتِ، وقوّمت عودكِ، وأصلحتِ نفسكِ، كي تعملي الصالحات. يقول حبيبي رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: << من مات قامت قيامته >>.

هنالك تفهمين يا نفسُ ! أنّكِ كنتِ تجرين خلف سراب الأوهام في أيام دنياكِ. فما ينفعكِ ذلك حيث لا ينفع الندم !

يا نفسُ ! تتمنّين لو أنّكِ رجعتِ، وقوّمتِ من إمات خصالكِ، وحزتِ الملكات الزكيّة النقيّة الطاهرة. وتتمنين لو فعلتِ أعمال البرّ والإحسان، وجاهدت الجهاد الأكبر لرفع ظلمات الرجس والدنس من وجودكِ، التي تراكمت على قلبكِ، وحوّلته قلبًا أسودًا.

يا نفسُ ! تتمنين لو أنّكِ سعيتِ في رضا الله واجتنبتِ مواقع معاصيه وذنوبه، وفهمتِ ما هو المهمّ على وجه الثرى ؟ السعي لدار الدنيا ودار الغرور أو السعي لدار الخلود ؟

يا نفسُ ! تتمنين لو أنّكِ فهمتِ ما هو الضلال وما هو الرشاد، وتخلّقتِ بخلق الله وأنتِ في دار الدنيا ! وتتمنين لو أنّكِ تقرّبتِ إلى الله زلفى، وشغلتِ أوقاتكِ بذكر الله وتهجّدتِ الليل في ذكراه!

يا نفسُ ! تتمنين لو أنّكِ بكيتِ على أعتاب الله لطلب الهداية والصلاح. وتتمنين لو أنّكِ تقرّبتِ إلى أولياء الله كي تتلقّي من نفسهم القدسيّ نفس الرحمن ونسيمه. وتتمنين لو أنّكِ أشبعتِ وجودكِ بذكر الله وكلام الله، وهويتِ الصلاح والصواب وتركتِ الهوى وهراء الكلام. وتتمنين لو أنّكِ ذقتِ الشهد من ألحان الأولياء، وحلّقتِ في الشاهقات في حبّ الله وعشقه.

يا نفسُ ! تتمنين لو أنّكِ راجعتِ كتاب تعاستكِ، وعرضتها على الله كي يغيّر السواد منها إلى البياض. وتتمنين لو أنّكِ هجرتِ رفاق السوء، واخترتِ مصاحبة الصالحين ورجال الله والعاشقين لذكر الله وقربه وزلفاه.

يا نفسُ ! تتمنين لو أنّكِ عمّرت نزل الآخرة، وهجرتِ في حبّ الله غير الله. فيا لشقوتكِ وغفلتكِ ! أردتِ الماء في الصحراء، وضيّعتِ عمركِ وراء السراب. قد غرّكِ وهج الدنيا وزبارجها وزينتها.

فيا أسفاه ! بعتِ الخلود بيوم خاطف، الذي هو يوم الدنيا، وشهوةٍ خاطفة لم تندمي عليها ولم تتحسّري عليها. وتتمنين لو أنّه كشف الغطاء وأنتِ على ظهر الثرى. فلقد حشرتِ نفسكِ، في اعتبارات اجتماعيّة، مع لئام خلق الله، في حبّ البنين والمال والجاه وحبّ الشهوات والغرائز والنساء.

يا نفسُ ! تتمنين لو أنّكِ ابتعدتِ عن البطر والطغيان والكبر والغرور والظلم وسيئات الأعمال، واخترتِ العدل والتقى، وأنصفتِ نفسكِ أولًا، وقبلتِ ذلّ ضلالكِ - وما أقلّ من يقرّ بذلّ ضلاله - وانكشفت أمامكِ عيوبكِ الظاهريّة والباطنيّة، التي انغمست عميقًا في ظلمات الشرك الخفيّ والظلم الخفيّ.

يا نفسُ ! تتمنين لو أنّكِ انشغلتِ بعيوبكِ عن عيوب الآخرين، ولزمتِ بيتكِ، وبكيتِ على خطيئتكِ، عمرًا طويلًا، حتى يشفق الله عليكِ، ويمسح عنكِ الخطايا والمعاصي.

فيا لهول جرح الخطايا والمعاصي والذنوب، وطول النسيان وطول الغفلة عن ذكر الله وعن دار الآخرة ! فلقد هجرتِ ذكر الحبيب، وضيّعت عمركِ في التّرهات وجحود آيات الله، وجفاء أولياء الله.

يا نفسُ ! تتمنين لو أنّ همّك في دار الدنيا كان في نشدان ربّ الخلود ودار الخلود. وتتمنين لو أنّكِ صحوتِ من سبات الغفلة قبل سكرات الردى. وتتمنين لو أنّكِ أوليتِ العقل حقّه، وأصغيتِ لداعي الله.

يا نفسُ ! تتمنين لو أنّكِ أسلمتِ وجهكِ لله فاطر السموات والأرض، ولو أنّكِ قضيتِ عمركِ خاشعة لله، شاكرة لله على نعمائه، باكية طوال العمر، طلبًا لرحمة الله وشفقته وبركاته، وطلبًا لزاد المعاد وحلل التقوى.

يا نفسُ ! تتمنين لو أنّكِ صحوتِ من ظلمات الغفلة والجهل والظلم، واستيقظتِ من نومكِ الطويل، وتبتِ من الذنوب والمعاصي التي اقترفتها، وأمنتِ العقاب وعذاب النيران بوسوسة الشيطان.

يا نفسُ ! تتمنين لو أنّكِ لم تحجبي الله عن نفسكِ عامدة، ولم تحجبي صوت ضميركِ عامدة. وتتمنين لو أنّكِ لم تظلمي الناس عند قدرتكِ عليهم، ولم تجفي الأرحام وأولي القربى.

يا نفسُ ! تتمنين لو أنّكِ لم تبطشي في ضعفاء الناس، ولم تبطري كبرًا وغرورًا، ولم تستعلي على الناس تكبّرًا وتجبّرًا، ولم تصعّري خدّك للأنام، كأنّك فرعون عصرك.

يا نفسُ ! تتمنين لو أنّكِ بذلتِ من ذاتكِ ومن مالكِ ومن علمكِ على الضعفاء والجهّال، وعملتِ جاهدة لمواساة الضعفاء، وتعليم الجاهلين. وتتمنين لو أنكِ لم تطيعي أصحاب الذنوب، ولم تفاخريهم بآثامكِ مستهترة بالحياء.

يا نفسُ ! تتمنين لو أنّكِ لم تسخري من الذين وعظوكِ، ونوّروا لكِ الطريق والنهج الصحيح، من أهل العلم والصلاح. وتتمنين لو أنّكِ فارقتِ رفاق السوء، وصحبتِ من يهوى الله حقّ هواه.

يا نفسُ ! تتمنين لو أنّكِ صاحبتِ أخلّاء الله وأحبّائه، وتحاشيتِ مصاحبة الجهلة من الناس، الذين أورثوكِ الضلال والويل والثبور، وغشّوا ضميركِ بـ سميك الغشاء، حتى لا تسمعي صوت الضمير من بواطن وجودكِ.

يا نفسُ ! تتمنين لو أنّكِ زهدتِ في الدنيا، ورغبتِ في الآخرة، وفي عزّ البقاء والخلود. وتتمنين لو أنّكِ عملتِ الخيرات في الضعفاء والفقراء، وأشبعتِ الجياع والغرثى، ورويتِ الأكباد الحرّى، ورحمتِ المساكين، وغسلتِ الأحزان عن أرواحهم.

يا نفسُ ! تتمنين لو أنّكِ غفرتِ العثرات والكبوات، وعفوتِ عمن أساء إليكِ. وتتمنين لو أنّكِ عشتِ الدنيا بحسن الخلق، وكنتِ سهلة الجانب، ليّنة العريكة، وكنتِ متواضعة متسامحة متصالحة متساهلة متحمّلة أذى الناس، بكلّ رحابة صدر.

يا نفسُ ! تتمنين لو أنّكِ كنتِ صابرة محتسبة في الشدائد، تتحمّلين مصائب الدنيا ومشقّاتها، راضية بقسمكِ، قانعة بالكفاف، متوكّلة على الله، تسليمًا لقضاء الله، صابرة على بلائه، راضية برضاه، حتى تتقوّى روحكِ بسلطان الله عزّ وجلّ، ويتحوّل ضعفكِ قوّة، وجهلكِ فطانة وحصافة وذكاء.

كل شيء ملكه وله ومنه وإليه

يا نفسُ ! يا ليت أدركتِ ذلك قبل الأوان وأنتِ على وجه الثرى ! يا ليت أدركتِ أنّ أنفاسكِ وزفراتكِ وشهقاتكِ ملكه وله ومنه وإليه !

وعمركِ ملكه وله ومنه وإليه ! وحياتكِ الدنيا ملكه وله ومنه وإليه ! والنشأة الآخرة ملكه وله ومنه وإليه ! والنعم والآلاء التي لا تعدّ ولا تحصى ملكه وله ومنه وإليه !

يا نفسُ ! لو أدركتِ قبل الأوان أنّ السلامة والصحّة والعافية ملكه وله ومنه وإليه ! وأنّ السعادة والنفس المطمئنّة ملكه وله ومنه وإليه ! وأنّ المال والمنال ملكه وله ومنه وإليه ! وأنّ الجاه والمقام ملكه وله ومنه وإليه ! وأنّ القصور والحرير والسندس والإستبرق ملكه وله ومنه وإليه ! وأنّ الأولاد والبنين ملكه وله ومنه وإليه ! وأنّ الذهب والفضّة والزمرّد والزبرجد ملكه وله ومنه وإليه ! وأنّ التبر والدرّ والجواهر ملكه وله ومنه وإليه !

يا نفسُ ! لو أدركتِ أنّ الثقلين – الجنّ والإنس والدنيا والآخرة - ملكه وله ومنه وإليه ! وأنّ ملك الكائنات بيديه، وناصية الثرى والسماء بيديه، وروحكِ ملكه وله ومنه وإليه ! وعقلكِ ملكه وله ومنه وإليه ! وذكاؤكِ ملكه وله ومنه وإليه ! وكلّ متاع الدنيا ملكه وله ومنه وإليه !

يا نفسُ ! لو أدركتِ أنّ قلبكِ بيديه ينبض في قوّة ! وأنفاسكِ بيديه في زفير وشهيق لا يتوقّف، وأعصابكِ وعروقكِ وشراييكِ بيديه.

يا نفسُ ! لو أدركتِ أنّ صولكِ بإذنه، وقهر مراستكِ بإذنه، وحولكِ بإذنه، والمال والبنين والنساء ملكه وله ومنه وإليه ! وروحكِ ومثالكِ ملكه وله ومنه وإليه ! وجسمكِ ويديكِ ملكه وله ومنه وإليه ! وأنفكِ وعيونكِ وأذنكِ وشفاهكِ ولسانكِ ولهواتكِ، بل جميع أعضائكِ وجوارحكِ، ملكه وله ومنه وإليه !

إذن فماذا بقي لكِ يا نفسُ ! إلّا الفقر المطلق والعجز المطلق، ولكنّكِ لا تعلمين. وعلمتِ حين لا ينفع لكِ ذلك، ولات حيث مناص !

يا ليتكِ علمتِ ذلك، وأنتِ على هذا الثرى، تسعين مسعاكِ الباطل، وربّما علمتِ كلّ ذلك، ولكنّكِ لم تعيري ذلك التفاتكِ ! ولم تعيري ذلك أهمية تذكر، لشقاوتكِ وانغماسكِ في اللذّات والشهوات والكبر والغرور !

عبّاد بني إسرائيل

[1] أخبروني هل الفريسيّون اليوم هم حقًّا فريسيّون ؟ وهل هم حقًّا عباد الله وخدّامه ؟ بالتأكيد لا ! والحقّ أقول لكم: **ليس هناك أسوء على وجه الأرض من رجل يحترف الدين، وعليه لباس الدين، كي يخبّئ وراء ذلك روحًا آثمة**[2].

سأقصّ عليكم حالة واحدة فقط عن الفريسيّين، في الزمن القديم، كي تعرفوا الفريسيّين في زماننا:

إنّ محفل الفريسيّين قد تشتّت وتبدّد وتفرّق شملهم، بعدما غادر إلياس النبيّ مسقط رأسه، بسبب الاضطهاد العظيم، الذي تعرّض له رجال الله من قبل الوثنيّين. وفي زمان إلياس، في خلال سنة واحدة فقط، قُتل أكثر من عشرة آلاف ١٠،٠٠٠ نبيّ، وكلّهم كانوا من الفريسيّين الصادقين.

وذهب فريسيّان منهم إلى الجبال، للإقامة والسكنى هناك. فأقام الواحد منهما ١٥ عامًا، لا يعلم شيئًا عن جاره، الذي كان لا يبعد عنه أكثر من رحلة ساعة. **وما أشدّ قربهما إلى الله، ونزاهتهما عن الفضول في أمور بعضهما البعض !** واتّفق أن حدث جفاف في تلك الجبال، وخرج الإثنان يبحثان عن الماء، فوجدا بعضهما البعض.

---

[1] من كتابي هكذا تكلّم عيسى عليه السلام

[2] يقول الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلّم: << أبغض العباد إلى الله من كان ثوباه خيرًا من عمله: أن تكون ثيابه ثياب الأنبياء وعمله عمل الجبّارين >>.

وجرت العادة آنذاك، أنّ الأكبر سنًّا يبدأ بالحديث قبل الأصغر سنًّا، وكانوا يعتقدونه إثمًا كبيرًا، إن تكلّم الصغير قبل الكبير.

فسأل الكبير: أين تقيم يا أخي ؟

فأجاب الصغير: أقيم هنا ! وأشار بإصبعه إلى مسكنه، حيث كانا قريبين منه.

فقال الكبير: يا أخي منذ متى تقيم هنا ؟

فأجاب الصغير: منذ ١٥ عامًا.

فقال الكبير: يمكن أن تكون قد أتيت إلى هنا، حينما كان آخاب[١] يقتل رجال الله وأوليائه.

فأجاب الصغير: بلى.

فقال الكبير: يا أخي هل تعرف من هو ملك إسرائيل الآن ؟

أجاب الصغير: الله وحده هو ملك إسرائيل ! لأنّ الوثنيين ليسوا ملوكًا لإسرائيل، بل مجرّد مضطهدين لإسرائيل.

فقال الكبير: صدقت ! ولكنّي كنت أعني من الذي يضطهد إسرائيل الآن ؟
فأجاب الصغير: ذنوب إسرائيل وحدها هي التي تضطهد إسرائيل. لأنّ إسرائيل لو لم تذنب، لما أقام الله ضدّها ملوكًا وثنيّين.

[١] زوج إيزابل التي قتلت عشرة آلاف نبيّ، وكانت نهايتها أن سقطت من نافذة بيتها، وأكلتها الكلاب، ونهشت جسدها نهشًا.

فقال الكبير: من هو الملك الكافر، الذي نصّبه الله من أجل معاقبة إسرائيل ومجازاتها والقصاص منها ؟

فأجاب الصغير: كيف أعرف ذلك، نظرًا إلى أني خلال ١٥ عامًا الماضية لم أرَ أحدًا غيرك، ولأنّي لا أقرأ، فلهذا لا أستلم رسائل من أحد !

فقال الكبير: كيف تلبس فروة غنم جديدة، في حين أنّك لم ترَ أحدًا ؟ فمن الذي أعطاك إياها ؟

فأجاب الصغير: إنّ الذي حافظ على جودة ثياب بني إسرائيل، في التيه في الفلاة، لمدّة أربعين عامًا، حافظ على جودة فروتي، كما تشاهد وترى.

فشعر الفريسيّ الأكبر سنًّا بأنّ الفريسيّ الأصغر سنًّا كان أكمل منه، لأنّه كان يتعامل مع الناس مرّة كلّ سنة. فأراد أن يستبقيه مدّة أطول، ويستفيد من المحاورة معه.

فقال له: يا أخي إنّك لا تعرف القراءة، وأنا أعرف القراءة، وأنا عندي زبور داود في بيتي. تعال عندي، وأنا سوف أقرأ لك في كلّ يوم شيئًا من الزبور، وأشرح لك ما قاله داود.

فقال الصغير: فلنذهب الآن حالًا.

فقال الكبير: يا أخي ما شربت الماء منذ يومين. فلنذهب للبحث عن قليل من الماء.

فأجاب الصغير: يا أخي أنا ما شربت الماء منذ شهرين. دعنا نذهب وننظر ما قاله الله على لسان داود. إنّ ربّنا الله قادر على سقايتنا.

فانطلقا إلى مأوى الفريسيّ الأكبر سنًّا، وشاهدا على بابه عين ماء زلال. فقال الكبير: يا أخي أنت وليّ قدّيس من أولياء الله، وقد فجّر الله هذه العين من أجلك.

فأجاب الصغير: يا أخي أنت متواضع. بالتأكيد لو أنّ الله فعل ذلك من أجلي لكان فجّر العين قرب مسكني، كي لا أذهب بعيدًا بحثًا عن الماء. وأنا أعترف لك بأني قد أذنبت في حقّك. لأنّك حينما قلت، بأنّك لم تذق الماء منذ يومين، وقلت لك إني لم أذق الماء منذ شهرين، شعرت كما لو أني مدحت نفسي، وأحسست بالعظمة[١] ، كما لو أني أحسن منك[٢] .

---

[١] هذا القدّيس قد علم علم اليقين أنّ العظمة ملك الله وله ومنه وإليه، لا يحقّ لنا نحن البشر أن نسرق مجد الله ونستشعر بالعظمة. فإن فعلنا فما أحوجنا لتعنيف النفس ولومها ومعاذلتها ومناصحتها، فإنّها والله صعبة، ولا ترضى إلّا بالباطل وسرقة أمجاد الله سبحانه وتعالى.

[٢] كما لو أني أحسن منك !!! وما أكثر ما تحبّ النفس ذلك، أن تظنّ نفسها خيرًا من الآخرين ، وهذا مخالف لقوانين التواضع، فإنّ الله خلق كلّ شيء لوظيفة ما، ربّما لا نعرفها، ويسّر لكلّ شيء ما خلق له.
فمن نحن حتّى نحكم على هذا وذاك ونقول (أنا خير منه)، وهذه من خصال إبليس المتكبّر، ويجب أن ننزّه أنفسنا منها تنزيهًا كاملًا.
وتحضرني الآن قصّة موسى عليه السلام حين ناجى ربّه ليلًا، فطلب الله منه أن يخرج غدًا من بيته من الصباح إلى المساء، ويجد إنسانًا أو حيوانًا أوضع منه، ثمّ يأتي به إلى الله.
وفي الصباح ذهب موسى إلى السوق، وبدأ بوظيفته التي كلّفه الله إياها، وذهب يبحث عن إنسان أو حيوان أوضع منه. وكان كلّما رأى إنسانًا وظنّ أنّه أوضع منه انتبه من غفلته وقال لنفسه: ما أدراك ! ربّما هو خير مني، فعلم باطنه عند الله.

فقال الكبير: يا أخي إنّك كنت صادقًا في كلامك، فلذلك فإنّك لم تذنب.

فأجاب الصغير: يا أخي إنّك قد نسيت ما قاله أبونا إلياس: من كان يبحث عن الله، ينبغي له أن يذمّ نفسه فقط. لا جرم أنّه كتب ذلك، كي نعمل به، لا أن نفهمه فحسب.

فقال الكبير، وقد أدرك صدق رفيقه وصلاحه واستقامته: صدقت ! وقد غفر الله لك ذلك. ثمّ أخذ الزبور، وقرأ ما قاله أبونا داود قائلًا: **سأحرس لساني كي لا يزيغ وينحرف إلى قول الجور والظلم والشرّ والإثم، حتى لا أجد عذرًا لمعصيتي.**

فبدأ الفريسيّ الأكبر سنًّا يحاضر عن اللسان. وفجأة غادر الفريسيّ الأصغر سنًّا. وبعد ١٥ سنة الأخرى، وجدا بعضهما البعض، لأنّ الفريسيّ الأصغر سنًّا كان قد غيّر محلّ إقامته.

وعندما وجده مرّة أخرى قال الكبير: يا أخي لماذا لم ترجع إلى بيتي ؟

أجاب الصغير: لأني لم أتعلّم جيّدًا ما قلته لي.

حتى قضى طول اليوم هناك، ولم يجد من هو أوضع منه. وفي المساء حين رجوعه إلى ربّه، وجد كلبًا عقورًا مريضًا جائعًا، يلتصق بطنه بعظامه، وصدره بقفص الصدر، من شدّة الجوع والعطش. فقال ها قد وجدتها ! إنّ هذا الكلب أوضع مني. وأراد أن يأخذ الكلب إلى ربّه.

فانتبه من غفلته، وقال لنفسه: ما أدراك أنّ هذا الكلب أوضع منك. ربّما خلقه الله خيرًا منك. فرجع إلى ربّه يائسًا خالي الوفاض، وأخبره بما رأى في ذلك اليوم. فخاطبه الله: يا موسى لو جئتني بهذا الكلب لخلعتك من مقام النبوّة!!!

فقال الكبير: كيف ذلك وقد مضت خمسة عشرة سنة ؟

أجاب الصغير: لقد فهمت الكلام من الساعة الأولى، ولم أنسه قط، بيد أنني لم أطبّقه، ولم ألتزم به بعد، كما يجب وينبغي. **فماذا ينفع أن نتعلّم كثيرًا، ولا نراعي ما تعلّمناه، ولا نطبّقه ولا نلتزم به ؟ إنّ ربّنا لا ينشد منا جودة وطيبة في الفهم والإدراك، بل جودة وطيبة في القلب. فهو سبحانه وتعالى سوف لا يسألنا في يوم القيامة، ماذا تعلّمنا، بل ماذا فعلنا.**

أجاب الكبير: يا أخي لا تقل ذلك ! لأنّك تستخفّ بالمعرفة، التي أرادها الله أن تقدّر وتثمّن.

فأجاب الصغير: يا ترى كيف أتكلّم الآن، كي لا أقع في المعصية ! لأنّ كلامك صدق، وكلامي أيضًا صدق. ما أقوله هو أنّه يجب على الذين فهموا وصايا الله المكتوبة في الناموس أن يطبّقوها أولًا، قبل أن يتعلّموا الباقي فيما بعد، وأنّه كلّما تعلّم الإنسان شيئًا، يجب عليه أن يلتزم بتلك الحكمة ويطبّقها، لا أن يعرفها ويفهمها فحسب.

فقال الكبير: يا أخي أخبرني مع من تكلّمت في هذه الفترة، حتى عرفت بأنّك لم تتعلّم كلّ ما قلته ؟

فأجاب الصغير: **يا أخي أنا أتكلّم مع نفسي. في كلّ يوم أحاسب نفسي، كما لو أني أمام الله في يوم القيامة. وكلّما حاسبت نفسي، أشعر بأنّ شيئًا ما في داخلي يجد لي أعذارًا لأخطائي وعيوبي وذنوبي.**

فقال الكبير: يا أخي أنت كامل ! فماذا يا ترى هي أخطاؤك وعيوبك وذنوبك!

أجاب الصغير: يا أخي لا تقل ذلك، لأني أقف بين ذنبين عظيمين: الأول أني لا أعرف نفسي بأني أعظم الخطّائين. والثاني أنني لا أريد أن أندم على ذنبي هذا أكثر من الآخرين.

أجاب الكبير: إن كنت أكمل الرجال، فكيف ينبغي أن تعرف نفسك بأنّك أعظم الخطّائين ؟

أجاب الصغير: إنّ أوّل كلمة قالها لي معلّمي، في بداية انخراطي في طريقة الفريسيّين هو أنّه ينبغي لي أن أضع نصب عيني، طيبة الآخرين وفداحة ذنبي، وإذا أنا فعلت ذلك، أدركت بأني أعظم الخطّائين.

فقال الكبير: يا أخي إن كان لا يوجد حواليك ناس في هذه الجبال، فعن طيبة من أو عن ذنوب من تتكلّم ؟

أجاب الصغير: ينبغي أن أضع نصب عيني طاعة الشمس والكواكب، لأنّها تخدم خالقها أحسن مني. بيد أني أذمّها، لأنّها لا تعطي النور الكافي، كما أحبّ وأشتهي، أو أنّ حرارتها شديدة، أو أنّ هناك مطرًا كثيرًا أو مطرًا قليلًا على هذه الأرض.

وعند سماع ذلك قال الكبير: يا أخي من أين تعلّمت هذه العقيدة ؟ لأنّ عمري الآن ٩٠ عامًا، وأنا على طريقة الفريسيّين منذ ٧٥ عامًا، ولم أتعلّم ذلك !

أجاب الصغير: يا أخي أنت متواضع، لأنّك وليّ قدّيس من أولياء الله. رغم ذلك أجيبك، بأنّ الخالق لا ينظر إلى أعمارنا، بقدر ما ينظر إلى قلوبنا. ولهذا انتخب

الله داود ملكًا على إسرائيل، وجعله نبيًّا، وهو في الخامسة عشرة من عمره، وكان أصغر من ستّة من إخوانه.

فقال عيسى للحواريين: هذا الرجل العابد كان فريسيًّا حقيقيًّا، ويا ليتنا نحظى بصداقته في يوم القيامة !

بذور الظلم الخفيّ

قال الله تعالى[1] : { قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ }.

ويقول الله تعالى[2] : { الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ }.

قبل الإسلام هناك معاصي وذنوب كثيرة ظاهريّة وباطنيّة، ونفترض أنّ المسلم الذي أسلم قد توقّف عن الذنوب الظاهريّة، ولكن الذنوب الباطنيّة تبقى في وجوده.

أو بعبارة أخرى، المفروض أنّ الشرك الظاهري باللسان قد توقّف، لكن يبقى بعده الشرك الخفيّ مستشريًا في المسلم، وفي أعماق وجوده، وهذا ما نسمّيه بـ الشرك الخفيّ.

وإلى أن يصل المسلم إلى رتبة الإيمان يضعف الشرك الخفيّ رويدًا رويدًا، ولكنّه يستزيد خفاء، وينفذ إلى أعماق وجوده، وكلّ ما تقدّم المؤمن في إيمانه، استزاد الشرك خفاء، ونفذ في أعماق الأعماق.

وما أكثر المؤمنين الذين يلبسون إيمانهم بظلم، وهذا هو ظلم النفس، وهو الظلم الخفيّ.

يا نفسُ ! فكما تجاهدين الجهاد الأكبر لاجتثاث بذور الشرك الخفيّ من أعماق وجودكِ، كذلك هناك الظلم الخفيّ، تختبئ وتختفي في ظلمات النفس. فجاهدي الجهاد الأكبر لاجتثاث بذور الظلم الخفيّ من وجودكِ.

---

[1] سورة الحجرات الآية ١٤.

[2] سورة الأَنعام الآية ٨٢.

ومثلنا أمام هذا الظلم الخفيّ كمثل القائل:

أينَ مـــــنْ يرحمـــــني أشـــــكو لهُ إنّمـــــا الشـــــكوَى إلى مـــــن يرْحمُ
أنا مـــــن قلـــــبيَ منهـــــا آيـــــسٌ لم يكـــــنْ مـــــن مقلتيهـــــا يســـــلمُ
أيهـــا الســـائلُ عـــن وجـــدي بهـــا إنّـــــــهُ أعظَـــــــمُ ممّـــــــا تَزْعُمُ

فما أعظم وجدي بالخلاص من هذا الظلم الخفيّ وذاك الشرك الخفيّ !

هلك من لم يكن له حكيم يرشده

وأحسن سلاح لهذا الجهاد الأكبر هو المعرفة، فاستزد منها، فوالله ما هلك من هلك إلّا لافتقاده المعرفة الحقّة الصحيحة التي هي النور، والتي عناها حبيبي رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم حيث قال: << العلم نورٌ يقذفه الله في قلب من يشاء >>.

يا نفسُ ! يقول الإمام زين العابدين عليه السلام: << هلك من لم يكن له حكيم يرشده >>. ويقول الله تعالى[1] : { وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا }.

يا نفسُ ! أخاف عليكِ أن تهلكي في هذه الفرصة القصيرة من عمركِ، فيا ترى كيف تحصل لكِ المعرفة الحقّة الصحيحة التي هي النور، من دون حكيم، الذي ذكره الإمام زين العابدين عليه السلام، ومن دون وليّ مرشد، الذي ذكره الله تعالى.

يا نفسُ ! في هذه المدّة القصيرة من عمركِ، انشدي بكلّ همّة وعزيمة حكيمًا يرشدكِ، ووليًّا يخرجكِ من ظلمات الجهالة، والشرك الخفيّ والظلم الخفيّ. يا نفسُ ! اسلكي أقصد المسالك إلى النهج المطلوب، كما قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في خطبته الغرّاء.

يا نفسُ ! إنّ في أعماقك دهاليز مظلمة، وفي داجيات غياهبها، ومدلهمّات أزقّتها الضيّقة، وحنادس[2] غرفها الكثيرة، حيث مدّ الظلام رواقه[3] الأسود في أغوارها، وعسعس الليل في جميع

---

[1] سورة الكهف الآية ١٧.

[2] الحنادس = المدلهمات = الغياهب = الظلمات

[3] رواق الليل = مقدمه وجانبه.

كهوفها وأوكارها، وتشابهت غياهب جبّها في كلّ مسالكها وأطوارها، هناك الشيطان وجنوده يعبثون ويسعون فيها فسادًا، وشركًا خفيًّا وظلمًا خفيًّا.

يا نفسُ ! لا بدّ لكِ من نور، يكشف لكِ ما يجري، بكلّ تفاصيله، في أعماق هذه الدهاليز المظلمة، وفي داجيات غياهبها، ومدلهمّات أزقّتها الضيّقة الحالكة، وحنادس غرفها الكثيرة، وفي أغوارها وكهوفها وأوكارها، وغياهب جبّها، ومسالكها الحالكة، حيث يفسق الشيطان ويفجر.

يا نفسُ ! إذا لم ينقشع الظلم الخفيّ الذي يخالط إيمانكِ، فلن ترنّ الأمن ولا النفس الهادية المهديّة المطمئنّة الراضية المرضيّة. يا نفسُ ! جاهدي الجهاد الأكبر، ومارسي أنواع الذكر، لرفع كلّ مظلمة يظلمكِ فيها الشيطان، وما أكثرها من مظالم ! يا نفسُ ! لا تتوقّفي، فإنّ العمر قصير والعمل كثير.

يا نفسُ ! إنّ الشيطان عدوّك ولا يريد بكِ إلّا شرًّا، يعبث فيكِ فسادًا وهدمًا وفسقًا وفجورًا، ويريد أن يوردكِ المهالك والأهوال الكبرى.

يا نفسُ ! إذا سلب منكِ الأمن والأمان، فكيف يا ترى تصلين إلى النفس المطمئنّة، التي يجب أن تصلي إليها، قبل أن يطلّ عليكِ شبح الموت ! وقبل أن تجيء سكرة الموت بالحقّ ! ذلك ما كنتِ منه تحيدين !

يا نفسُ ! أخاف عليكِ أن لا تصلي إلى مقام النفس المطمئنّة الخالدة، وترجعي إلى ربّك راضية مرضيّة، متجاوزة البرزخ، متخطّية كلّ مراحل البرزخ، حيث تدخلين في عباد الله المخلصين، وتدخلين جنّة الله.

يا نفس أعاذلك فلا تسمعين

يا نفسُ ! كم تظامين نفسكِ ! أعاذلكِ فلا تسمعين، وإذا سمعتِ فلا تنصتين، وإذا أنصتِ كان قلبكِ قاسيًا عن حظّه، لاهيًا عن رشده، سالكًا في غير مضماره، كأنّ المعنيّ سواكِ، وكأنّ الرشد في إحراز دنياكِ !

يا نفسُ ! لا أقول ما أقول إلّا ما يقوله العقل والمنطق الصحيح. ما دمتِ في قيد الزمان والمكان فلا ينفعكِ إلّا عقل المعاش، لتحصيل معاشكِ في هذه الدنيا المحدودة الضيّقة. أمّا إذا خرجتِ من قيد الزمان والمكان، انتصبت فيكِ قامة العقل الروحاني، فتجدين بهذا العقل العجَب العجَاب !

تجدين ما وجده الأنبياء والأئمّة عليهم السلام والصدّيقون والقدّيسون وأولياء الله الصالحون، من حقارة هذه الدنيا، وعظمة الخالق وبدائعه في خلقه، وكم خبّأ لنا من مباهج، ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على بال بشر !

يا نفسُ ! اخرجي من قيود الزمان والمكان، وانظري في مصير الماضين قبلك، كيف عاشوا، وكيف احتضروا، وكيف ماتوا، وكيف تحسّروا على أعمالهم، وقد فاتتهم المهلة التي أعطوها، وفاتهم القطار الذي لا يرحم، من فسحة الدنيا وفرصتها الذهبيّة.

فإذا كان الماضون لكِ عبرة فاعتبري بهم، واتّعظي بهم، وغيّري نهجكِ في الحياة، رأسًا على عقب. إذا كنتِ في عصبيّة الجاهليّة فاهجريها، وميلي إلى التسامح. وإذا كنتِ في الغضب فاهجريه، وميلي إلى الحلم. وإذا كنتِ في الجهل فاهجريه، وأقبلي بكلّ وجودكِ على كنوز المعرفة والحكمة. وإذا كنتِ في ضيق الأفق فاهجريه، وميلي إلى سعة الأفاق من التفكير النيّر والنهج النيّر في الحياة.

يا نفسُ حذار حذار من أفكاركِ المشتّتة المبعثرة ! يا نفسُ ! يا ترى ماذا فعلت بطاقاتكِ التي وهبك الله إياها، والتي بذّرتيها تبذيرًا، في التفكير المعوجّ، وفي النهج المعوجّ في حياتكِ !

يا نفسُ ! أما آن الأوان أن تعملي بالتمارين التي علّمتك إياها، حتى تصبحي مالكة لأفكاركِ لا مملوكة، مالكة لطاقاتكِ لا مملوكة، مالكة لأموالكِ لا مملوكة، مالكة لدنياكِ لا مملوكة !

يا نفسُ ! أما آن الأوان أن تستثمري كلّ أفكاركِ وطاقاتكِ في معرفة نفسكِ التي هي معرفة الله! كنتِ مملوكة لا تستطيعين ذلك، ولكنكِ بعد أداء التمارين التي علّمتك إياها، سوف تصبحين مالكة، وتستطيعين أن تجاهدي الشيطان الذي هو عدوّك، والذي يجري فيكِ مجرى الدم في شراييكِ، وأن تستكشفي نفسكِ بسلاح المعرفة النورانيّة وأنوارها الكشّافة !

يا نفسُ ! أما آن الأوان أن تستأصلي كلّ القذارات التي تلتصق بنفسكِ، في أعماق دهاليزها المظلمة، وفي داجيات غياهبها، ومدلهمّات أزقّتها الضيّقة الحالكة، وحنادس غرفها الكثيرة، وفي أغوارها وكهوفها وأوكارها، وغياهب جبّها، ومسالكها الحالكة، حيث يفسد الشيطان ويفسق ويفجر ... وذلك يا نفسُ ! تحت إرشاداتي المستمرّة لكِ !

يا نفسُ ! ما أطول غفلتكِ وسباتكِ ! فانتبهي من غفلتكِ، واستيقظي من سباتكِ، فالموت لمّا يطبّق عليكِ خناقه، ولمّا يغرز في لحمكِ براثنه، ولمّا يجمّد دمائكِ، ولمّا يحبس أنفاسكِ، ولمّا يوقّف زفيركِ وشهيقكِ، ولمّا ينهش لحمكِ نهشًا، ولما يبل جسدكِ، ولما ينتن رائحتكِ، ولما يغيّر ملامحكِ، ولما تصبحي في محلّة الأموات رهينة، وفي ضيق المضجع وحيدة، ولما تهتك الهوامّ جلدتكِ، ولما تبل النواهك جدّتكِ، ولما تعف العواصف آثاركِ، ولما يمح الحدثان معالمكِ، ولما يصير جسدكِ شحبًا بعد بضّته، والعظام نخرة بعد قوّتها، وروحكِ لا زالت في نشأة قابلة للهداية، والسلوك في طريق الرشاد، والإدبار عن طريق الغيّ، ولا زلتِ في وعي وعافية، تسمعين ندائي، وتنصتين إلى كلامي ومعاذلتي وموعظتي ونصائحي وإرشاداتي، ولكِ القوّة على تغيير نهجكِ في الحياة، رأسًا على عقب.

يا نفس اجمعي شتات أفكارك

يا نفسُ ! انتبهي ! الملك لله وحده، وقد أودع ملكوته في كلّ شيء من بدائعه، فاتركي كلّ شيء، وابحثي عن ملكوته في كلّ شيء، حتى تكوني من الموقنين، كما حدث لأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام.

يا نفسُ ! اتركي كلّ شيء والتصقي بالله، واجمعي شتات أفكاركِ، واسلكي أقصد المسالك إلى النهج المطلوب، لا تفتلكِ فاتلات الغرور، وأوهام العُجْب والكبر والشرور، وادخلي مباشرة في السير والسلوك، بإرادة قويّة وبكلّ تصميم وعزيمة، وابدئي بـ ذكر الله، وابتعدي عن ذكر سواه، بل خافي وأوجلي من ذكر سواه، فإنّ وقع الغير في قلبكِ، فإنّه شرك خفيّ وظلم خفيّ، تمارسينه في نفسكِ.

يا نفسُ ! إنّكِ الآن مستمرّة في ظلم خفيّ، تظلمين نفسكِ بتوجّهاتكِ وتعلّقاتكِ المبعثرة هنا وهناك، وتهدرين طاقاتكِ مجّانًا، كأنّكِ لست بحاجة إليها.

يا نفسُ ! اجعلي وردكِ وردًا واحدًا. لو أنكِ سحبتِ الشيء الثقيل من أربع جهات، بقوى مساوية، فهل يا ترى يتحرّك ذلك الشيء ! فكذلك أنتِ الآن لا تتقدّمين قيد أنملة، وقد قال عليّ عليه السلام: << مغبونٌ من تساوى يوماه >>. فيومكِ مثل أمسكِ وغدكِ مثل يومكِ، إلى أن تجيئ سكرة الموت بالحقّ ! ذلك ما كنتِ منه تحيدين !

أو لستِ مغبونة يا نفسُ ! أمّا إذا كانت طاقاتكِ كلّها متّجهة إلى جهة واحدة، لتحرّك ذلك الشيء الثقيل فورًا.

يا نفسُ ! إنّك بحاجة الآن إلى أصغر الطاقات كي تنقذي نفسكِ من ظلم نفسكِ. فاجمعي طاقاتكِ كي تكون كلّها وردًا واحدًا، وكي تتّجه كلّها جهة واحدة، بقوّة عظيمة، كتيّار النهر الجارف، حتى تحقّقي هدفك من خلاص نفسكِ من الظلم الخفيّ.

وأوّل الطاقات وأهمّها هو أفكاركِ، فلا تبعثريها هملًا، واجمعيها بالتمارين التي علّمتكِ إياها، حتى تكوني سيّدة أفكاركِ، لا مملوكة أفكاركِ، كما أنتِ الآن.

فما فائدة هذه الأفكار المبعثرة التي إذا فرغتِ من شغل الدنيا رافقتكِ إلى صلاتكِ ومحرابكِ ! قال صلوات الله وسلامه عليه وآله: << الصلاة معراج المؤمن >>. فهل يا ترى تسمح لكِ هذه الأفكار المشتّتة بالمعراج في الصلاة ! وقال صلوات الله وسلامه عليه وآله: <<لا صلاة إلا بحضور القلب>>. فهل يا ترى تسمح لكِ هذه الأفكار المتبدّدة المشوّشة بحضور القلب في الصلاة !

بل ما أكبر ضرر هذه الأفكار المبعثرة على حياتكِ في هذه الدنيا، وفي بناء النهج الجديد في حياتكِ، لجمع زاد المعاد، والتزوّد لدار الآخرة، ألا فإنّ خير الزاد التقوى ! يابن آدم ! أكثر من الزاد فإنّ الطريق بعيد بعيد، وجدّد السفينة فإنّ البحر عميق عميق، وخفّف الحمل فإنّ الصراط دقيق دقيق، وأخلص العمل فإنّ الناقد بصير بصير، وأخّر نومك إلى القبر، وفخرك إلى الميزان.

يا نفس كم تسوّفين

يا نفسُ ! كم تسوّفين ! وكم تمنّين نفسكِ بطول الآمال ! وكأنّ لكِ فسحة في الزمان، فلربما داهمكِ الموت بعد ساعات أو بعد دقائق أو بعد ثوان ! أليس ما تفعلينه يا نفسُ ! ظلم بحقّك ؟

اعتبري من آثار الماضين قبلكِ، أعطاهم الله فسحة ومهلة في هذه الدنيا، كي يستثمروا طاقاتهم في زاد المعاد، لكنّهم سوّفوا واستهتروا وطوّلوا آمالهم في الدنيا، وسمعوا الرادع فلم يرتدعوا ولم يرعووا، حتى داهمتهم المنايا، وأرهقهم دون الآمال، وشذّبهم عن آمالهم تخرّم الآجال.

فامتهدي يا نفسُ ! لدار الخلود، وأنتِ في عزّ الصحة والعافية، والدنيا دار عمل، فإذا انقضت الدنيا كانت نشأة الآخرة دار حصاد، وقد غودرتِ في محلّة الأموات رهينة، وفي ضيق المضجع وحيدة، تهتك الهوامّ جلدتكِ، وتبلي النواهك جدّتك، وتعصف العواصف آثارك، ويمحو الحدثان معالمك، ويصير جسدكِ شحبًا بعد بضّته، والعظام نخرة بعد قوّتها، والأرواح مرتهنة بثقل أعبائها، لا تستزاد من صالح أعمالكِ، ولا تستعتبين من سيّئ زللكِ[1] .

ينادي المنادي: { وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ }[2] . يا نفسُ ! أما آن الأوان أن ترتدعي عن غيّكِ، وتكفّي عن ظلمكِ لنفسكِ ! أو تضحّين بالخلود من أجل دراهم معدودة، ألا هي الدنيا الحقيرة، في أوقات محدودة، ألا هي أيّام عمركِ القصيرة !

وإذا غشـــاني الليـــل صرت بـــذكره ... يا حـــرّ قلـــبي مـــن هـــواه تســـعّرا

كيـــف المنـــام وحســـن وجهـــك بائن ... في سرّ قلـــــبي كالنهـــــار تنـــــوّرا

---

[1] من كلام أمير المؤمنين وسيّد الوصيين عليّ بن أبي طالب صلوات الله وسلامه عليه وآله.

[2] سورة الصافات الآية ٢٤.

يا ربّ عبـــدك قـــد فـــنى في ربّـــه في قـــدس حبّـــك عاشـــقًا متحـــيّرا

يقول حبيبي رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: << من اشتاق إلى الجنّة سارع إلى الخيرات، ومن أشفق من النار لهى عن الشهوات، ومن ترقّب الموت لهى عن اللذّات، ومن زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات >>.

يا نفسُ ! سارعي إلى الخيرات، والهي عن الشهوات وعن اللذّات ! واشغلي حواسّكِ بالمباهج الروحيّة ! فإنّ الحواس تحبّ المباهج !

يا نفس اشغلي الحواس بالمباهج الروحية

أمّا عن المباهج والتلذّذ، فاسمعي يا نفسُ ! ما يقوله عيسى عليه السلام في الفصل التالي تحت اسم (الصوم عن اللذّات) عن الحواس وحبّها للمباهج واللذّات.

فكلّما اقتصدنا في اللذّات زاد حظّنا منها في النعيم المقيم، وكلّما أسرفنا فيها خسرناها في الدنيا بكبدها وعنائها والندم وعدم الرضا، وفي الآخرة خسرنا اللذّات جميعًا، وذلك هو الخسران المبين.

يا نفسُ ! الاعتدال فضيلة، وكلّما تخطّيتِ حدود الاعتدال، زاد الكبد والعناء والندم وعدم الرضا في ممارسة اللذّات، وزالت عنها البركات. وإنّما نعني بالاعتدال في اللذّات، ممارسة جنسيّة معتدلة في إطار شرعي. وغير ذلك فهو التخطّي عن حدود الاعتدال، وعلى الأخصّ الإباحيّة في ممارسة الجنس الحرام الذي نسمّيه الزنا.

يقول الله تعالى[1] : { وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا }.

فعمل الزنا ذاته فاحشة، ولكن ما يزيد الطين بلّة، هو التبعات وثقل الأعباء التي تبقى في روح الآثمين، والذي يعبّر عنه القرآن الكريم بـ (سَاءَ سَبِيلًا).

يا نفسُ ! إنّ الأرواح مرتهنة بتبعاتها وثقل أعبائها، تتعذّب بها، وإذا أصبح الرّوح رهينًا بحبّ الشهوات وعشقها، فهو معذّب في البرزخ، إذ يوجد هناك الشبق يعذّبه في النشأة الآخرة، ولكن لا توجد أدوات هناك لهذا العمل، فيبقى الرّوح معذّبًا بذلك في البرزخ.

[1] سورة الإسراء الآية ٣٢.

يا نفسُ ! إنّ التلذّذ والشهوات مرتبطة بالحواس، فإنّ الله قد خلق الحواس، من أجل الحبور والبهجة والمسرّات، واللهو والبسط والملذّات، والحظّ والرضا وطيب الخاطر. وهي تعيش بهذه المباهج وحدها، كما يعيش البدن بالطعام والشراب، ويعيش الرّوح بالعلم والمعرفة والعشق والمودّة والمحبّة.

يا نفسُ ! فإذا لم تريدي تغذية الحواس بالملذّات الشهوانيّة، فهناك ضرورة قصوى لتغذيتها بالمباهج الروحيّة.

وفي فصل لاحق باسم (الروح والحواس والجسد) سوف أذكر لكِ يا نفسُ ! التفاصيل عن مكوّنات الإنسان الأساسيّة: الرّوح والحواس والجسد.

الصوم عن اللذات

[1] واستمر عيسى قائلًا: إنّ المرء إذا ارتكب المعاصي والآثام، ومن ثمّ داهمه الحزن والأسى والشجى على آثامه، واغتمّ وتكدّر وندم وأنّبه ضميره، فأوّل شيء يفعله هو الصوم. فمثلًا إذا رأى المرء طعامًا معيّنًا يسبّب له المرض، ومن ثمّ الموت الذي يخاف منه، يحزن ويندم ويغتمّ ويتكدّر ويؤنّبه ضميره، لأكله ذلك الطعام. فأوّل شيء يفعله المرء، هو أنّه يترك ذاك الطعام، كي يتحاشى المرض.

وكذا ينبغي للمذنب أن يفعل !

فإذا لاحظ الخاطئ الأثيم، أنّه بمباشرته الشهوة والملذّات الدنيويّة، قد أثم في حقّ خالقه، لأنّه وقع في شراك حواسه، ينبغي له أن يحزن على آثامه، لأنّها تبعده عن الله وعن الحياة، وتؤدي به إلى العذاب الأبدي.

ولأنّ الإنسان في حياته الدنيويّة، يحتاج إلى هذه الملذّات الشهوانيّة، لذا فإنّ الصيام واتّباع الضوابط ضروري، كي يستطيع الإنسان أن يكبح جماح حواسّه، وكي يعرف بأنّ لله الولاية والسيادة عليه.

وإذا رأى أنّ الحواس تكره الصيام وتبغضه وتمقته، **فدعه يذكّرها بحالة الجحيم، حيث لا ملذّات البتّة، بل حزن وشجى غير متناه وغير محدود. ودعه يذكّرها بمباهج الجنّة وملذّاتها، فهي عظيمة جدًّا، بحيث أنّ مثقال ذرّة من مباهج**

[1] من كتابي هكذا تكلّم عيسى عليه السلام.

الجنّة وملذّاتها، أعظم من كلّ المباهج والملذّات الدنيويّة مجتمعة. وبذلك يسهّل عليك تهدئة الحواس وكبح جماحها.

فالأحسن أن تقنع بالقليل في هذه الدنيا، لنيل الكثير في الآخرة، من أن تطلق العنان للقليل، ثمّ تُجرّد وتُحرم من كلّ الملذّات والمباهج في الجحيم، وتبقى في عذاب جهنم خالدًا فيها.

ينبغي لكم أن تتذكّروا الثريّ المتنعّم، محبّ القَصْف والمآدب والولائم، حتى تصوموا جيّدًا. لأنّه اتّبع على الأرض حياة الترف، والتذّ بأشهى الأطعمة وألذّها، وفي الآخرة ودار الخلود، حرم إلى الأبد، حتى من قطرة ماء واحدة، يبلّل بها شفاهه. في حين أن لازاروس كان قانعًا على الأرض بلباب الخبز، فعاش في حياة الخلد في فيض كامل، ووفرة وغزارة من مباهج الجنّة وملذّاتها.

ولكن ينبغي للتائب أن يكون محتاطًا. فالشيطان يبحث عن كلّ وسيلة لإبطال العمل الصالح وإلغائه، وفي التائب أكثر من غيره، لأنّ التائب تمرّد ضدّ الشيطان، وشقّ عصا الطاعة، وأظهر العصيان، وتحوّل من عبدٍ مطيعٍ أمين، إلى خصمٍ عاصٍ وعدوّ لدود.

فالشيطان ينشد أن يتسبّب في أن لا يصوم التائب، كيفما كان، تحت عذر المرض. وإذا لم تجد محاولاته ولم تثمر، سيدعوه إلى الصوم القاسي، بمنتهى القسوة والشدّة، كي يمرض التائب، وبعدئذ يعاود ترفه في أشهى الأطعمة وألذّها. وإذا لم ينجح الشيطان في محاولاته، فسوف ينشد أن يقتصر الصائم على الصوم عن الطعام فقط، كي يكون الصائم مثل الشيطان نفسه، الذي لا يأكل أبدًا، بل يذنب دائمًا سرمدًا.

بحقّ الحيّ الذي لا يموت، كم هو مقيت بغيض كريه، أن تصوم عن الطعام وحده، وفي الوقت نفسه، تملؤ روحك بالعُجْب والغرور والتكبر، وتحتقر أولئك الذين لا يصومون، وتستخفّ بهم، وتعتبر نفسك أحسن من الآخرين!

أخبروني هل أنّ الرجل المريض يتباهى ويتفاخر بالحمية، التي فُرضت عليه من قبل الطبيب، ثمّ يسمّى أولئك الذين لم تُفرض عليهم الحمية بالمجانين ؟ بالتأكيد لا ! ولكنّه يحزن لمرضه، الذي كان السبب في الحمية التي لا بدّ منها، والتي فرضت عليه بالضرورة.

ولنفس السبب أقول لكم بأنّه لا ينبغي للتائب أن يتفاخر بصيامه، ويستخفّ بأولئك الذين لا يصومون. بل ينبغي له أن يحزن ويغتمّ لذنوبه، التي بسببها فرض عليه الصيام. وأيضًا لا ينبغي للتائب الذي يصوم، أن يهيّئ لنفسه الأطعمة الفاخرة، بل يجب عليه أن يكون قانعًا بالخشن الجشب من الطعام.

والآن قولوا لي، هل يعطي الإنسان الكلب ـ الذي يعضّ، أو الفرس الذي يرفس برجله ـ أطعمة فاخرة ؟ كلا بالتأكيد ! إنّ الإنسان يفعل العكس تمامًا. فاكتفوا الآن بما أوضحت لكم عن الصيام.

الروح والحواس والجسد

[1] فقال ثادايوس: إذن الله عنده الحواس التي يهيمن عليها.

أجاب عيسى عليه السلام: لا زلتم تكرّرون مقالتكم: الله عنده كذا والله هو كذا ! أخبرني هل للإنسان حواس ؟

فقال الحواريون: بلى.

فقال عيسى عليه السلام: هل يوجد إنسان تدبّ فيه الحياة، بيد أن حواسه لا تعمل؟

فقال الحواريون: كلا.

أجاب عيسى عليه السلام: أنتم تخدعون أنفسكم. لأنّ الأعمى الأصمّ الأبكم المشلول، أين توجد حواسه ؟ أو أين توجد حواس الإنسان عندما يغمى عليه ؟

فارتبك الحواريون.

عندئذ قال عيسى عليه السلام: **الإنسان يتكوّن من ثلاث: الرّوح والحواس والجسد، كلّ على حدة. إنّ الله قد خلق الرّوح والجسد، كما سمعتم سابقًا، بيد أنّكم لم تسمعوا بعد كيف خلق الله الحواس.** سأخبركم غدًا إن شاء الله تعالى.

وبعد صلاة الفجر جلس عيسى تحت نخلة، واقترب الحواريون منه. ثمّ تكلّم قائلًا: بحقّ الحيّ الذي لا يموت والذي نفسي بين يديه، إنّ الكثيرين قد خدعوا

[1] من كتابي هكذا تكلّم عيسى عليه السلام.

في فهم حقيقة حياة الإنسان. ولأنّ الرّوح والحواس مرتبطة عن قرب مع بعضها البعض، لذلك فإنّ أكثريّة الناس يؤكّدون بأنّ الرّوح والحواسّ هي شيء واحد، وهم يقسّمونها بحسب الوظيفة، لا بحسب الجوهر، ويسمّونها الرّوح الحاسّة، أو الرّوح الخاملة، أو الرّوح العاقلة.

الحقّ أقول لكم: إنّ الرّوح واحدة، وهي التي تحيى وتفكّر[1] . أيها الحمقى ! أين سيجدون الرّوح العاقلة من دون حياة ؟ إنّ ذلك مستحيل ! بيد أنّهم سيجدون الحياة من دون حواس بكلّ سهولة، كما في الصمّ البكم العمي المشلولين، وفي حالة الإغماء والغشية وفقدان الوعي، حينما تفارق الحواس الإنسان.

فقال ثاديوس: أيها المعلّم حينما تغادر الحواسّ الحياة، يكون الإنسان من دون حياة.

أجاب عيسى عليه السلام: إنّ ذلك غير صحيح، لأنّ الإنسان يجرّد من الحياة حينما تغادر الرّوح البدن، لأنّ الرّوح لا ترجع إلى البدن مرّة أخرى إلّا بمعجزة. بيد أنّ الحواس تغادر البدن بسبب خوف الرّوح، أو بسبب الحزن العميق التي تصاب به الرّوح.

إنّ الله قد خلق الحواس، من أجل الحبور والبهجة والمسرّات، واللهو والبسط والملذّات، والحظّ والرضا وطيب الخاطر. وهي تعيش بهذه المباهج[2] وحدها، كما

---

[1] وهذه الرّوح التي تحيى وتفكّر، تنتقل بعد موت الإنسان من هذه النشأة إلى نشأة الآخرة، حيّة مفكّرة، كما كانت في الحياة الدنيا. راجع محاورة الإمام الصادق عليه السلام مع جابر بن حيان في كتابي (وحدة الإرادة في الوجود).

[2] وهذه الحواس التي تتغذّى بمباهج الحياة، كما ذكرها عيسى عليه السلام، مطابقة لبرازخ الرّوح التي ذكرتها في كتابي (وحدة الإرادة في الوجود)، وذكرتُ استقلاليتها عن الرّوح، في أنّ لها وظائف أساسيّة في حياة الإنسان. وهذه

يعيش البدن بالطعام والشراب، ويعيش الرّوح بالعلم والمعرفة والعشق والمودة والمحبة.

إنّ هذه الحواس الآن ثائرة وعاصية ومتمرّدة ضدّ الرّوح، لغيظها وحنقها وسخطها وغضبها من تجرّدها وحرمانها من مباهج جنات الفردوس، بسبب ارتكاب المعصية من قبل أبينا آدم. لهذا فإنّ هناك ضرورة قصوى لتغذيتها بالمباهج الروحيّة، بالنسبة لأولئك الذين لا يريدون تغذيتها بالملذّات الشهوانيّة. هل تفهمون ؟

الحقّ أقول لكم: إنّ الله سبحانه وتعالى خلق الحواس، وحكم عليها بالعذاب في نار جهنم، وأدانها بالعذاب في صقيع الجليد، الذي لا يطاق، لأنّها قالت بأنّها الله. ولكن عندما حرمها الله من التغذية، بإبعاد قوّتها وغذائها عنها، هنالك اعترفت وأقرّت بأنّها مجموعة من عبيد الله وخلقه وصناعة يديه.

الحواس متعطّشة لمباهج الحياة، في هذه النشأة وفي النشأة الأخرى، أي في دار الخلود. إنّ هذه الحواس الآن ثائرة وعاصية ومتمرّدة ضدّ الرّوح، لغيظها وحنقها وسخطها وغضبها من تجرّدها وحرمانها من مباهج جنّات الفردوس، بسبب ارتكاب المعصية من قبل أبينا آدم.

ولهذا فإنّ المباهج تتضاعف أضعافًا مضاعفة في الجنّة، لخلوّها من الغيظ والحنق والسخط والغضب والحرمان، الذي تحسّه هذه الحواس في هذه الدنيا، بسبب حرمان أبينا آدم من جنات الفردوس، إثر المعصية التي ارتكبها بوسوسة الشيطان. أو كما ذكر عيسى بالنصّ في مكان آخر: ودع التائب يذكّر حواسه بمباهج الجنّة وملذّاتها، فهي عظيمة جدًّا، بحيث أنّ مثقال ذرّة من مباهج الجنّة وملذّاتها، أعظم من كلّ المباهج والملذّات الدنيويّة مجتمعة.

وعلى صعيد آخر، فإنّ عذاب الحرمان يتضاعف أضعافًا مضاعفة في نار الجحيم، لغيظ الحواس وحنقها وسخطها وغضبها من حرمانها المضاعف من جنات النعيم. أو كما قال عيسى بالنصّ في مكان آخر: فدع التائب يذكّر الحواس بحالة الجحيم، حيث لا ملذّات البتّة، بل حزن وشجى غير متناه وغير محدود.

والآن أخبروني كيف تعمل الحواس عند الكافرين الذين لا يؤمنون بالله ؟ بالتأكيد إنّهم يتبعون الحواسّ ولا يتبعون الله، نابذين المنطق وقانون الله وراء ظهورهم. لذلك فهم بغيضون كريهون ممقوتون، لا يعملون الصالحات مهما عملوا وكدّوا واجتهدوا.

حبّ الدنيا رأس كل خطيئة

يا نفسُ ! كفى استهتاركِ بالظلم الخفيّ العظيم الذي تقترفينه في حقّكِ ! يا نفسُ ! رسّخي حبّ الله في كلّ ذرّة من وجودكِ، وانزعي حبّ الدنيا من قلبكِ، فإنّ حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة.

يا نفسُ ! كفى استهتاركِ بالشرك الخفيّ العظيم الذي تقترفينه في حقّكِ ! يا نفسُ ! انزعي غير الله من قلبكِ، حتى يرجع قلبكِ قلبًا سليمًا أبيضًا ناصع البياض. أوما سمعتِ الله تعالى يقول[1] : { وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ }.

يا نفسُ ! إنّ القلب السليم هو القلب الذي لا يوجد فيه غير الله، هو القلب الذي يخفق بعشق الله، هو القلب الذي يخفق بالرحمة، هو القلب الذي يخفق بالبرّ والخير والإحسان، هو القلب الذي يخفق بالعدل والطهارة والنزاهة، هو القلب الذي يخفق بالجود والكرم، لا يشوبه شيء آخر غير الله وعشقه ورحمته وبرّه وخيره وإحسانه وعدله وطهارته ونزاهته وجوده وكرمه، بل كلّ أسمائه الحسنى. يا نفسُ ! لا تشركي بالله في قلبكِ أحدًا.

يا نفسُ ! اجعلي قلبكِ طاهرًا نزيهًا رحيمًا عاشقًا، لا يسع سوى الله. يا نفسُ ! لا تفسحي المجال لغير الله في قلبكِ أبدًا، فإنّ الله غيور. يقول جلّ من قائل[2] : { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا }.

---

[1] سورة الشعراء ٨٧ – ٨٩.

[2] سورة النساء الآية ٤٨.

إلهي ترى حـــالي وفقـــري وفـــاقتي ... وأنـــت مناجـــاتي الخفيّـــة تســـمع
إلهي ذنـــوبي بـــذّت الطـــود واعتلـــت ... وعفـــوك عـــن ذنـــبي أجـــلّ وأوســـع
[1] إلهي حليـــف الحـــب بالليـــل ســـاهر ... ينـــاجي ويـــدعو والمغفّـــل يهجـــع
إلهي خطيئـــاتي تلـــحّ عـــلى الحشـــا ... ســـأبكي وأشـــكو لـــوعتي أتفجّـــع
إلهي وقلـــبي في هـــواك مســـعّر ... حـــزين كئيـــب في الهـــوى متصـــدّع
إلهي دمـــوعي قـــد أفاضـــت عـــلى الـــثرى ... وعيـــني عـــلى محـــراب حبّـــك تـــدمع
إلهي عبيـــدك مســـكين فقـــير مـــذلّل ... ضـــعيف وفي أحشـــاه فقـــر مـــدقع
إلهي مخافتـــك العظـــمى عـــلى القلـــب قـــابع ... يـــؤرّق نـــومي والجـــوى متفجّـــع
إلهي دمـــوعي مهراقـــة مذرافـــة ... والقلـــب حـــرّى والوصـــال يطمّـــع
إلهي جفـــني في الـــدجى بات ســـاهرًا ... وعشـــقك يجلـــو في الظـــلام ويلمـــع
إلهي أضحّي في الظـــلام بنـــومتي ... وفي لـــذّة اللقيـــا أبيـــت وأطمـــع
إلهي سمـــت روحي وضـــاءت وســـطّعت ... وأنـــوار قلـــبي في حضـــورك تســـطع

[1] الأبيات الثلاث الأولى لأمير المؤمنين الإمام عليّ عليه السلام

يا نفس تجافي عن دار الغرور

يا نفسُ ! هذا هو الفخّ المنصوب لكِ، فأعرضي عن الدنيا، وتحرّزي منها، وطلّقيها ثلاثًا، وانظري إليها بعين الخائف الوجل منها، وافطني للفخّ، وانحرفي عنه، واحذريه، وكوني منها كالطائر الذي عرف الفخّ المنصوب، وفطنّ له، فانحرف عنه وحذره.

يا نفسُ ! فخّ الدنيا يبدأ حين يقوم اعتدالك ويستوي مثالك. فانظري ماذا يقول الإمام عليّ عليه السلام عن هذا الفخّ الخطير، وتعلّمي منه دروسًا لا تنسيه أبدًا.

يقول الإمام عليّ عليه السلام:

أَمْ هَذَا الَّذِي أَنْشَأَهُ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْحَامِ وَشُغُفِ[1] الْأَسْتَارِ نُطْفَةً دِهَاقاً [2] وَعَلَقَةً مِحَاقاً [3] وَجَنِيناً وَرَاضِعاً وَوَلِيداً وَيَافِعاً ثُمَّ مَنَحَهُ قَلْباً حَافِظاً وَلِسَاناً لَافِظاً وَبَصَراً لَاحِظاً لِيَفْهَمَ مُعْتَبِراً [4] وَيُقَصِّرَ مُزْدَجِراً [5] حَتَّى إِذَا قَامَ اعْتِدَالُهُ وَاسْتَوَى مِثَالُهُ نَفَرَ مُسْتَكْبِراً وَخَبَطَ سَادِراً [6] مَاتِحاً فِي غَرْبِ هَوَاهُ [7] كَادِحاً سَعْياً لِدُنْيَاهُ فِي لَذَّاتِ طَرَبِهِ وَبَدَوَاتِ أَرَبِهِ [1]

---

(١) جمع شغاف وهو الستار اللّين.

(٢) مسكوبًا.

(٣) لا شكل له.

(٤) متّعظًا.

(٥) امتنع عن الإثم.

(٦) ضالًا لا يخاف.

(٧) سحب الماء في دلو هواه.

ثُمَّ لَا يَحْتَسِبُ رَزِيَّةً [٢] وَلَا يَخْشَعُ تَقِيَّةً [٣] فَمَاتَ فِي فِتْنَتِهِ[٤] غَرِيراً وَعَاشَ فِي هَفْوَتِهِ يَسِيراً لَمْ يُفِدْ عِوَضاً [٥] وَلَمْ يَقْضِ مُفْتَرَضاً [٦]دَهِمَتْهُ فَجَعَاتُ الْمَنِيَّةِ فِي غُبَّرِ جِمَاحِهِ[٧]وَسَنَنِ مِرَاحِهِ [٨] فَظَلَّ سَادِراً [٩] وَبَاتَ سَاهِراً فِي غَمَرَاتِ الْآلَامِ وَطَوَارِقِ الْأَوْجَاعِ وَالْأَسْقَامِ بَيْنَ أَخٍ شَقِيقٍ وَوَالِدٍ شَفِيقٍ وَدَاعِيَةٍ بِالْوَيْلِ جَزَعاً وَلَادِمَةٍ[١٠] لِلصَّدْرِ قَلَقاً وَالْمَرْءُ فِي سَكْرَةٍ مُلْهِثَةٍ وَغَمْرَةٍ كَارِثَةٍ وَأَنَّةٍ مُوجِعَةٍ وَجَذْبَةٍ مُكْرِبَةٍ [١١] وَسَوْقَةٍ مُتْعِبَةٍ[١٢] ثُمَّ أُدْرِجَ فِي أَكْفَانِهِ مُبْلِساً [١٣] وَجُذِبَ مُنْقَاداً سَلِساً ثُمَّ أُلْقِيَ عَلَى الْأَعْوَادِ رَجِيعَ وَصَبٍ[١٤] وَنِضْوَ سَقَمٍ[١٥]تَحْمِلُهُ حَفَدَةُ الْوِلْدَانِ وَحَشَدَةُ الْإِخْوَانِ إِلَى دَارِ غُرْبَتِهِ وَمُنْقَطَعِ زَوْرَتِهِ[١]وَمُفْرَدِ

---

(١) عمل بما أراد.

(٢) لا يحسب للمصائب حسابًا.

(٣) ولا يبالي بذنب.

(٤) في غفلته وضلاله.

(٥) لم يستفد من نعم الله.

(٦) ولم يبال بالواجبات.

(٧) في أواخر طغيانه.

(٨) في اللذّات وهوى النفس.

(٩) بقي حيرانًا تائهًا.

(١٠) لاطمة.

(١١) احتضار شاق.

(١٢) في مشقّة شديدة.

(١٣) في ضيق.

(١٤) كناقة تعبت من السفر.

(١٥) في وجع شديد.

وَحْشَتِهِ حَتَّى إِذَا انْصَرَفَ الْمُشَيِّعُ وَرَجَعَ الْمُتَفَجِّعُ أُقْعِدَ فِي حُفْرَتِهِ نَجِيّاً[٢] لِبَهْتَةِ السُّؤَالِ[٣]وَعَثْرَةِ الِامْتِحَانِ وَأَعْظَمُ مَا هُنَالِكَ بَلِيَّةً نُزُولُ الْحَمِيمِ وَتَصْلِيَةُ الْجَحِيمِ وَفَوْرَاتُ السَّعِيرِ وَسَوْرَاتُ الزَّفِيرِ لَا فَتْرَةٌ مُرِيحَةٌ وَلَا دَعَةٌ مُزِيحَةٌ[٤]وَلَا قُوَّةٌ حَاجِزَةٌ [٥] وَلَا مَوْتَةٌ نَاجِزَةٌ [٦] وَلَا سِنَةٌ مُسَلِّيَةٌ بَيْنَ أَطْوَارِ الْمَوْتَاتِ[٧] وَعَذَابِ السَّاعَاتِ[٨] إِنَّا بِاللَّهِ عَائِذُونَ.

هذا هو الفخّ المنصوب لكِ يا نفسُ ! فأعرضي عن الدنيا، وانظري إليها بعين الخائف الوجل منها، وافطني للفخّ، وانحرفي عنه، واحذريه، كالطائر الذي عرف الفخّ المنصوب وفطن له فانحرف عنه وحذره.

أيعقل يا نفسُ ! أن يكون الطائر أفطن منكِ !!!

يا نفسُ ! إنّ الدنيا كالعسل وأنتِ كالذبابة، إن وقعتِ في العسل هلكتِ. فخذي حذركِ، وابتعدي عنها ابتعاد الفريسة عن السبع.

---

(١) تنقطع رؤيته.

(٢) هامسًا.

(٣) خوف السؤال.

(٤) لا راحة ترفع عنه البلاء.

(٥) ولاقوّة تمنع عنه البلاء.

(٦) ولا موتة تنجيه.

(٧) بين الموتات المختلفة.

(٨) وعذاب مستمرّ.

يا نفس هذا فخ الدنيا فاحذريه

يا نفسُ ! يبدأ فخّ الدنيا عندما تفتحين عينيكِ على امتحان الدنيا، وعندما يشتدّ ساعدكِ، ويقوم اعتدالكِ، ويستوي مثالكِ، بعد أن أنشأكِ الله في ظلمات الأرحام، وشغف الأستار، نطفة دهاقًا، وعلقة محاقًا، وجنينًا وراضعًا، ووليدًا ويافعًا، ثمّ منحكِ قلبًا حافظًا، ولسانًا لافظًا، وبصرًا لاحظًا، لتفهمي معتبرة، وتقصري مزدجرة.

يا نفسُ ! بعد تجاوز أيام الطفولة، عندما يشتدّ ساعدكِ، تستكبرين، ويركبكِ الكبر والغرور، فأنتِ الآن في دار الغرور، لا تخافين شيئًا، ولا تبالين بشيء، تتيهين في ضلالتكِ أيّما تيه، وتسخرين من كلّ شيء، وكأنّ كلّ شيء في قبضتكِ وتحت حكمكِ !

يا نفسُ ! أنتِ منغمسة في هواكِ وشهواتكِ، لا تتفكّرين إلّا في النساء، والزنا والسفاح، وتكدحين سعيًا لدنياكِ، تنهبين هذا وتسرقين ذاك، وتثبين على ممتلكات غيركِ، من دون رادع من ضمير.

يا نفسُ ! تقضين أيامكِ ولياليكِ في لذّاتِ الطرب، وتعملين في أيام غروركِ كلّ ما تريدين، لا تبالين بشيء، ولا تحسبين للمصائب والرزايا أيّ حساب، ولا تخشعين ولا تخضعين لله، وترتكبين الذنوب والمعاصي، ولا تبالين بشيء، ولا تنصتين إلى النصائح والمواعظ.

يا نفسُ ! تعيشين في هفواتكِ وذنوبكِ وآثامكِ مدّة يسيرة، وأنتِ تفكّرين أنّكِ مخلّدة، والموت لغيركِ لا لكِ، رغم أنّكِ تشاهدين أقربائكِ وأحبّائكِ يموتون أمام عينيكِ، وتدفنينهم بيديكِ، رغم ذلك لا

تبالين بالموت، ولا تعيرينه التفاتكِ. ربّما عند دفن أحبّائكِ تأثرتِ قليلًا، لكنّك تنسين بعد ذلك كلّ شيء.

يا نفسُ ! وفي ذروة هذه الكبرياء والغطرسة، يطرق باب داركِ الأوجاع والآلام، والأمراض والأسقام، ويصيبكِ الضعف والوهن، فتئنّين منها أنينًا، وتصرخين صراخًا وتعولين عويلًا.

يا نفسُ ! ماذا استفدتِ من نعم الله التي لا تعدّ ولا تحصى ؟ ما أكثر المباهج الروحيّة التي تملأ الرّوح بهجةً وسرورًا ! ما أكثر المباهج التي تتأتّى من أعمال البرّ والخير والإحسان ! ما أكثر مباهج الصلاة إذا كانت بحضور القلب ! ما أكثر مباهج الصلاة إذا كانت معراجًا !

يا نفسُ ! إنّكِ منغمسة في الشهوات والملذّات الحسّيّة، لا تعيرين المباهج الروحيّة أيّ اهتمام، ولا تبالين بالفرائض التي فرضها الله عليكِ.

يا نفسُ ! وفي هذه المعمعة من الغفلة والتكبّر والتجبّر ومقارفة اللذّات والشهوات الحسّيّة، وإذا بفجعات المنيّة تدهمكِ، وأنتِ في ذروة طغيانكِ، وفي إسارة هوى النفس وشهواتها ولذّاتها، فتبقين حائرة تائهة، لا تدرين ماذا تفعلين !

يا نفسُ ! وفي غمرات الآلام والأوجاع والأمراض والأسقام، تسهرين بين إخوانكِ وأخواتكِ وأولادكِ ووالديكِ، إن كانا أحياء، وبين زوجتكِ وبناتكِ داعيات بالويل والثبور جزعًا، ولاطمات للصدور فزعًا، وأنتِ في سكرات الموت، وغمرات الكارثة، وأنّات موجعة، واحتضار شاقّ، ومشقّات شديدة، لاهية عنهم، ومشغولة بمعاناتكِ، وما تقاسيه من كوارث الدهر، وطوارق الأوجاع والأسقام.

يا نفسُ ! يقول الله عزّ وجل[1] : { فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ }.

يا نفسُ ! تقعين في ضيق شديد، وتموتين، وتدرجين في أكفانكِ، يقلّبكِ الغسّالون كيف يشاؤون، وأنتِ لا حول لكِ ولا قوة، منقادة سلسة بيد الغسّالين.

يا نفسُ ! ثمّ تلقين على خشب الجنازة، كناقة رجعت من السفر، وهي منهكة متعبة، مستهلكة قواها، مستنفذة كلّ طاقاتها، تعاني الأوجاع والآلام، تحملك أولادكِ وأحفادكِ وإخوانكِ وأقاربكِ وأصدقاؤكِ ومعارفكِ إلى دار غربتكِ، ومنقطع زورتكِ، حيث تنقطع رؤيتك إلى الأبد.

يا نفسُ ! ثمّ يضعونكِ في لحدكِ وحيدة فريدة، ويحثون التراب عليكِ، تحاشيًا من رائحة الموتى النتنة. حتى إذا انصرف المشيّعون، ورجع المتفجّعون، أقعدتِ في حفرتكِ الضيّقة، تهمسين بصوت خافت، من كثرة الخوف والجزع والهلع، خوفًا من سؤال منكر ونكير، وكثرة هفواتكِ وعثراتكِ، وذنوبكِ ومعاصيكِ، لا تدرين كيف تبرّرينها.

يا نفسُ ! وأعظم من كلّ هذا، نزول الحميم، وتصلية الجحيم، وفورات السعير، وسورات الزفير، لا تنالين فترة مريحة، ولا راحة حتى للحظة، لرفع البلاء، ودفع نيران الجحيم.

لا تمنعكِ دونها أيّة قوة منكِ، حيث لا حول لكِ ولا قوة، تتمنّين موتة، تقضي عليك نهائيًّا، وتنجيكِ من كربتكِ، فلا تنالينها، وتتمنّين سنة من نوم، تسليك من عذابكِ، فلا تحصلينها، وأنتِ بين أطوار الموتات، موتة بعد موتة، وبين فورات من العذاب، لحظة بعد لحظة.

---

[1] سورة الأَنعام الآية ٤٤.

فأين الفرار والهرب من فخّ الدنيا، تتمنّين الفرار والهرب، ولات حين مناص ! تتمنّين أن ترجعي إلى الدنيا كي تعملي صالحًا فيما تركت، ويأتيكِ الجواب: { كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ }[1] .

[1] سورة المؤمنون الآية ١٠٠.

هكذا تغدر الدنيا بأهلها

يا نفسُ ! هاك قصّة رجل ثريّ كان يتكبّر على الفقراء ولا يساعدهم، بل كان يسخر منهم. فانظري ماذا كان مصيره. هكذا تغدر الدنيا بأهلها !

[1] قال عيسى عليه السلام: الويل لخدّام الجسد، لأنّ لا أمل لهم في الحياة الآخرة غير العذاب جزاء على ذنوبهم ! أقول لكم كان هناك رجل ثريّ نهم وشره، والذي لم يكن يهمّه في الحياة غير النهم والشراهة. وكان يقيم كلّ يوم وليمة فاخرة.

وكان يقف عند بابه رجل فقير اسمه لازاروس مثخنًا بالجراح، وكان راضيًا ببقايا طعام ولائمه الفاخرة. إلّا أنّ الرجل الثريّ وحاشيته بخلوا حتى بذلك، وحرموه من بقايا الطعام، وسخروا منه. كانت الكلاب فقط هي التي ترفق به، إذ كانت تلحس جراحه.

واتفق أن مات الرجل الفقير، وحملته الملائكة إلى أحضان أبينا ابراهيم. وأيضًا مات الرجل الثريّ، وحملته الشياطين إلى أحضان إبليس، حيث كان يعاني أسوء العذاب.

ومن هناك رمق الرجل الثريّ إلى لازاروس من بعيد، وهو في أحضان ابراهيم عليه السلام. فصاح بأعلى صوته: يا أبانا ابراهيم ارحمني وابعث لازاروس إليّ حتى يبرّد لساني بأصابعه، ولو بقطرة واحدة فقط من الماء، فإنّ لساني يعذّب في لهب السعير.

---

[1] من كتابي هكذا تكلّم عيسى عليه السلام.

أجاب ابراهيم: يا بنيّ تذكّر أنّك تمتّعت في الحياة الدنيا، وأن لازاروس عانى الأمرّين فيها. لهذا يجب أن تعذّب الآن ويرتاح لازاروس.

وصاح الرجل الثريّ مرّة أخرى قائلًا: يا أبانا ابراهيم إنّ في قصري ثلاثة من إخواني، فابعث لازاروس إليهم ليخبرهم مدى معاناتي هنا، حتى يندموا على أعمالهم ويتحاشوا عذاب الآخرة.

فأجاب ابراهيم: عندهم موسى والأنبياء الآخرون. دعهم ينصتون إليهم.

فقال الرجل الثريّ: كلا يا أبانا ابراهيم ! إذا بعث ميّت في الدنيا وأخبرهم فإنّهم سوف يصدّقونه.

فأجاب ابراهيم: إن من لا يصدّق موسى والأنبياء الآخرين فسوف لا يصدّق الموتى حتى وإن بعثوا.

ثمّ قال عيسى: البركة والغبطة للفقراء الصابرين الراضين بالكفاف من العيش المبغضين للجسد ! واشقوتاه لأولئك الذين يشيّعون موتاهم إلى القبور، كي يقدّموا لحومهم طعامًا للديدان، ثمّ لا يعتبرون ! كم هم بعيدون عن واقع الحياة، حيث يظنّون أنّهم في هذه الدنيا خالدون، لأنّهم يبنون قصورًا ويلهثون وراء المال مغرورين متكبّرين !

رققوا قلوبكم بذكر الموت

من وصايا عيسى عليه السلام وموعظته لأصحابه[1] :

[2] بحقّ أقول لكم: إنّ الحريق ليقع في البيت الواحد، فلا يزال ينتقل من بيت إلى بيت، حتى تحترق بيوت كثيرة، إلّا أن يستدرك البيت الأول، فيهدم من قواعده[3] ، فلا تجد فيه النار محلًّا. وكذلك الظالم الأوّل لو أخذ على يديه، لم يوجد من بعده إمام ظالم فيأتمّون به، كما لو لم تجد النار في البيت الأول خشبًا وألواحًا[4] لم تحرق شيئًا.

---

[1] تحف العقول: ٥١٣ - وبحار الأنوار: ٣١٧/١٤.

[2] من كتابي هكذا تكلّم عيسى عليه السلام.

[3] وكذلك جذور الشرك الخفيّ والظلم الخفيّ في وجودك ، إنها البيت الأول الذي لا بد أن يستدرك ، فيهدم من قواعده ، حتى لا تنتشر نيران المعاصي والخطايا ، فتحرق بيوتا كثيرة في وجودك ، ومنها الأمن والأمان والنفس المطمئنة الراضية المرضية.

[4] يا ترى ما هي الخشب والألواح في وجودك ، حيث تصل إليها النيران ، من الشرك الخفيّ والظلم الخفيّ ، فتسبّب كل هذا الحريق ! هي والله حبّ الدنيا وحبّ العلوّ في الأرض ، التي لها بقاياها في وجودك. يقول الله تعالى في سورة القصص الآية ٨٣: تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوّا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين.

وكيف أسكت وأنا أرى الحيّة تؤمّ أخي لتلدغه ، ولا أحذّره حتى تقتله ، وكيف أنظر الى أخي يعمل الخطايا والمعاصي ، ولا أحذّره عاقبتها ، حتى تحيط بي ، فلا أأمن أن أكون قد شركت في إثمه !

الظلم الخفيّ هو فيك ، وأنا أريك مواقعه ، فلماذا لا تتحرّك يا أخي لجهاده ؟ كم تظلم نفسك ! أعاذلك فلا تسمع ، وإذا سمعت فلا تنصت ، وإذا أنصتّ كان قلبك قاسيا عن حظّه ، لاهيا عن رشده ، سالكا في غير مضماره ، كأن المعنيّ سواك ، وكأن الرشد في إحراز دنياك !

بحقّ أقول لكم: من نظر إلى الحيّة تؤمّ أخاه لتلدغه، ولم يحذّره حتى قتلته، فلا يأمن أن يكون قد شرك في دمه، وكذلك من نظر إلى أخيه يعمل الخطيئة، ولم يحذّره عاقبتها، حتى أحاطت به، فلا يأمن أن يكون قد شرك في إثمه[1] .

ومن قدر على أن يغيّر الظالم، ثمّ لم يغيّره، فهو كفاعله. وكيف يهاب الظالم، وقد أمن بين أظهركم، لا ينهى ولا يغيّر عليه، ولا يؤخذ على يديه. فمن أين يقصر الظالمون أم كيف لا يغترّون ؟ فحسب أحدكم أن يقول: لا أظلم ومن شاء فليظلم، ويرى الظلم فلا يغيّره، فلو كان الأمر على ما تقولون، لم تعاقبوا مع الظالمين، الذين لم تعملوا بأعمالهم، حين تنزل بهم العثرة في الدنيا[2] ؟

---

[1] وكيف أسكت وأنا أرى الحيّة تؤمّ أخي لتلدغه، ولا أحذّره حتى تقتله، وكيف أنظر إلى أخي يعمل الخطايا والمعاصي، ولا أحذّره عاقبتها، حتى تحيط بي، فلا أأمن أن أكون قد شركت في إثمه !

الظلم الخفيّ هو فيك، وأنا أريك مواقعه، فلماذا لا تتحرّك يا أخي لجهاده ؟ كم تظلم نفسك ! أعاذلك فلا تسمع، وإذا سمعت فلا تنصت، وإذا أنصتّ كان قلبك قاسيًا عن حظّه، لاهيًا عن رشده، سالكًا في غير مضماره، كأنّ المعنيّ سواك، وكأن الرشد في إحراز دنياك !

[2] يا ربّ لقد بلّغت، فارحمني، واصطنعني لنفسك، واغفر لي ذنوبي وخطاياي، ولا تأخذني بذنوبي وذنوبهم، فأصبح من الهالكين !

يا ربّ اجعلني من المصطفين الأخيار الذين هم خالص زيت الطبيعة البشريّة. طيبتهم تعلو الطيبة البشريّة، كما يعلو الزيت كلّ سائل.

يا ربّ اجعلني كتابك الحيّ الذي تهبه للعالم، واجعل كلّ ما أقوله وكلّ ما أفعله مطابقًا لرضاك.

يا ربّ اجعلني الملح الذي يمنع اللحم البشري أن يتعفّن، بسبب الذنوب والخطايا، واجعل كلّ من يقرأ ما كتبته يراجع نفسه، ويندم على ذنوبه.

يا ربّ اجعلني النور الذي ينير طريق المقبلين عليك والسائرين والسالكين إليك، بحيث تفتح قلوبهم المغلقة، وتدخل النور في قلوبهم، وتكشف الظلمات عنها.

ويلكم يا عبيد السوء، كيف ترجون أن يؤمنكم الله من فزع يوم القيامة، وأنتم تخافون الناس في طاعة الله، وتطيعونهم في معصيته، وتفون لهم بالعهود الناقضة لعهده ؟ بحقّ أقول لكم، لا يؤمّن الله من فزع ذلك اليوم، من اتّخذ العباد أربابًا من دونه.

ويلكم يا عبيد السوء، من أجل دنيا دنيّة وشهوة رديئة، تفرطون في ملك الجنّة، وتنسون هول يوم القيامة ! ويلكم يا عبيد الدنيا، من أجل نعمة زائلة وحياة منقطعة، تفرّون من الله، وتكرهون لقائه! فكيف يحبّ الله لقائكم وأنتم تكرهون لقائه ؟ وإنما يحبّ الله لقاء من يحبّ لقائه، ويكره لقاء من يكره لقائه.

وكيف تزعمون أنّكم أولياء الله من دون الناس، وأنتم تفرّون من الموت، وتعتصمون بالدنيا ؟ فماذا يغني عن الميّت طيب ريح حنوطه، وبياض أكفانه، وكلّ ذلك يكون في التراب، كذلك لا يغني عنكم بهجة دنياكم التي زيّنت لكم، وكلّ ذلك إلى سلب وزوال ! ماذا يغني عنكم نقاء أجسادكم وصفاء ألوانكم، وإلى الموت تصيرون، وفي التراب تنسون، وفي ظلمة القبر تغمرون !

ويلكم يا عبيد الدنيا، تحملون السراج في ضوء الشمس، وضوؤها كان يكفيكم، وتدّعون أن تستضيؤوا بها في الظلم، ومن أجل ذك سخّرت لكم ! كذلك استضأتم بنور العلم لأمر الدنيا وقد كفيتموه، وتركتم أن تستضيؤوا به لأمر الآخرة، ومن أجل ذلك أعطيتموه !

تقولون: إنّ الآخرة حقّ وأنتم تمهّدون الدنيا ! وتقولون: إنّ الموت حقّ وأنتم تفرّون منه ! وتقولون: إن الله يسمع ويرى، ولا تخافون إحصائه عليكم ! فكيف يصدّقكم من سمعكم ؟ فإنّ من كذب من غير علم أعذر ممّن كذب على علم، وإن كان لا عذر في شيء من الكذب.

بحقّ أقول لكم: إنّ الدابّة إذا لم تركب ولم تمتهن وتستعمل، لتصعب ويتغيّر خلقها، وكذلك القلوب إذا لم ترقّق بذكر الموت ويتبعها دؤوب العبادة تقسو وتغلظ.

ماذا يغني عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره، وجوفه وحش مظلم ! كذلك لا يغني عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم، وأجوافكم منه وحشة معطّلة ! فأسرعوا إلى بيوتكم المظلمة فأنيروا فيها، كذلك فأسرعوا الى قلوبكم القاسية بالحكمة، قبل أن ترين عليها الخطايا، فتكون أقسى من الحجارة.

يقول الله عزّ من قائل في الحديث القدسيّ: << يابن آدم ! أكثر من الزاد فإنّ الطريق بعيد بعيد، وجدّد السفينة فإنّ البحر عميق عميق، وخفّف الحمل فإنّ الصراط دقيق دقيق، وأخلص العمل فإنّ الناقد بصير بصير، وأخّر نومك إلى القبر، وفخرك إلى الميزان >>.

ويقول الله تعالى في زبور داود: << لو تفكّرتم خشونة الثرى، ووحشة القبر وظلمته، لقلّ كلامكم، وكثر ذكركم، واشتغالكم بي >>.

ويقول رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: << إنّ الأرض لتنادي كلّ يوم سبعين مرّة: يا بني آدم كلوا ما شئتم واشتهيتم، فوالله لآكلنّ لحومكم وجلودكم >>.

ويقول رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: << ما من ساعة تمرّ بابن آدم لم يذكر الله فيها إلّا حسر عليها يوم القيامة >>.

حقوق النشر محفوظة للمؤلف
حقوق النشر محفوظة للمؤلف
www.taqimusawi.com